
عبدالمقصود محمد
رواية
بيلسان

رواية

بيلسان

تأليف

عبد المقصود محمد



العنوان

بيلسان
(رواية)

تأليف

عبد المقصود محمد

إشراف عام

داليا محمد إبراهيم



الترقيم الدولي: 1-4889-14-977-978
رقم الإيداع: 9456 / 2014
الطبعة الأولى: يونية 2014

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

بیلسان

إهـــــداء

إلى زوجتي الرائعة: ســناء حــافـظ التي ضحت بالكثير من طموحاتها من أجلي.

عبد المقصود محمد

1

في يـوم شـتوي غائـم، أحسَّـت بالإجهـاد وتصبـب العرق عـلى وجهها بغـزارة، كانت تمسـح أرضية السـجن، شـعرت بـدوار، تحاملـت وقاومت لكنها انهارت وسقطت على الأرض، سارعت إليها بقية السجينات وحملنها إلى داخـل الزنزانـة، أخرجـت إحداهن قطعة حلوى كانـت تخبئها في طيات ملابسها وأعطتها لها قائلة:

- كلي هذه السكاكر لتعيد لك حيويتك.

وأتت سجينة أخرى بقنينة ماء قدمتها لها:

- اشربي يا حبيبتي، بيلسان، اشربي.

تجرعت الماء وتنفست بعمق ثم قالت:

- ليتني أموت فأستريح.

- بيلسان، كوني قوية، نستمد منك الأمل فلا تخذلينا.

- ثماني سـنوات مرت وأنا حبيسـة هنـا بلا أي ذنب.. لمـاذا؟ ألا يكفيهم مـا فعلـوه بأهلي؟ لمـاذا يحرمونـي من طفلـين بحاجـة لحنـاني ورعايتي؟ ما ذنبهما؟

- لا تيئسي وقدمي التماسًا آخر.

- قدمت ألف التماس وما من مجيب، أين منظمات حقوق الإنسـان؟ أين الصليـب الأحمـر؟! زارونا عدة مرات وحكيت لهم مأسـاتي فـماذا فعلوا.. يا ألله، كفاني عذابًا، ارحمني فأنت أرحم الراحمين يا ألله.

- ماذا تفعلن هنا أيتها السجينات المشاغبات؟

سألتهن السجانة غليظة القلب فأجابتها إحداهن:

- بيلسان سقطت من طولها، اطلبي لها الإسعاف، إنها مريضة.

- فلتعد كل سـجينة إلى زنزانتها فورًا، آمر السـجن سيمر حالًا ولو رأى هذه الفوضى سيعاقبني أنا.

تفرقت السـجينات وهرعت كل واحدة إلى زنزانتها، أطلت السجانة من فتحة الباب وسألت بيلسان:

- هل أطلب لك الإسعاف أم أنك تتمارضين؟

- ارحمينـي يرحمـك الله، ارحمينـي وتذكـري قـول الله عـز وجـل: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

- ما لك أنت وما جاء بالقرآن أيتها الصابئية.

- وما أدراك أينا أفضل عند الله من الأخرى؟

- غرورك سيقتلك وستندمين حينما أبلغ آمر السجن أنك تتمارضين.

في تلك اللحظة سمعت السجانة من تناديها بحزم:

- عفراء.

فابتعدت وهي ترد: نعم، حاضرة.

كانت بيلسان تعاني من قسوة السجانة عفراء وضيق أفقها فدعت الله أن يخلصها منها ليخفف عنها ما تلاقيه من غلظتها وسوء معاملتها، رفعت يديها تشكو إلى الله عذابها من فقد الأهل وفراق الأبناء، ظلت تدعو وتتقرب إلى الله وتسأله أن يرفع مقته وغضبه عنها ويشملها برحمته ويجمعها بطفليها، ولما أفرغت كل مشاعرها في الدعاء، هدأت واستكانت، فأشرقت ذاكرتها بصورة زوجها المرحوم حاتم، ناجته بلهفة كأنه يسمعها:

- لماذا رحلت قبلي يا حاتم؟ لماذا تركتني للعذاب؟ ليتني مت قبلك.. كنت ستحافظ على الطفلين أكثر مني، لقد ضعفت وساقتني لهفتي لرؤية أخي عدنان لهذا المصير، كنت غبية، كيف جرؤت على ترك الطفلين مع جدهما العجوز وجدتهما المريضة، أعرف أنك غاضب مني ولك كل الحق أنت والطفلين، أرجوك اعذرني، خوفي على عدنان كاد يقتلني، لكني أبدًا لم أخن عهدك يا حاتم، غلطتي أنني ضعفت وجريت وراء وهم أنني سأراه، إنه أخي الوحيد وأنت أيضًا تحبه مثلي،أتذكر كيف دافع عن حبنا؟ وكيف شجع خالي حيدر على إقناع أبي بزواجنا؟

وفي ظلمة الزنزانة تجسد لها طيف زوجها ليضيء بوجهه المشرق عتمة السجن ويقترب منها، ثم يربت على كتفها مواسيًا، فاقشعر بدنها وهي تستشعر حرارة جسمه وسخونة يده وسمعته يطيب خاطرها بصوته الدافئ الحنون:

- حبيبتي، لا تحزني، المؤمن مبتلى يا بيلسان، وبقدر الإيمان يأتي البلاء، اصبري على البلاء يا حبيبتي وثقي في الله.

- غبت عن الطفلين ثماني سنوات يا حاتم، ولا أدري إن كانا مستمرين في الدراسة أم انضما إلى أطفال الشوارع، وأصبح أمجد صبيًّا في ورشة يطلقون عليه «الواد بليه» وربما أخته روان تبيع الآن المناديل في إشارات المرور.

وقبل أن تنهار وتجهش بالبكاء، أحست بطيف حاتم يدنو منها حتى كادت تشم رائحته وتحس حرارة جسده وسخونة أنفاسه، ومال عليها فقبل جبينها وربَّت على خدها قائلًا:

- اطمئني، أمجد وروان بخير.

- أعرف أن روحك الطاهرة تهيم حولهما وترعاهما.

- بل الله يرعاهما أفضل مني ومنك.

- ونعم بالله.

- فليهدأ بالك ولتطمئني يا بيلسان.

- الله، لكم اشتقت لسماع اسمي من شفتيك يا حاتم.

- تعرفين عشقي لك، وقد جئتك اليوم لأطمئنك وأبشرك بأن فرج الله قريب، فلا تحزني يا حبيبتي، لا تحزني.

تلاشى طيفه تدريجيًّا واختفى، مدت بيلسان يدها كأنها تريد أن تمسكه، وتلفتت حولها ثم استفاقت من الحلم، فشعرت بالسكينة والراحة، اعتدلت في جلستها وأخذتها الذكريات إلى أول لقاء جمعها بذلك المهندس المصري البارع، الذي تعاقدت معه المؤسسة فأتى إلى بغداد في منتصف التسعينيات، ورغم صعوبة الأوضاع المعيشية تحت الحصار فإن راتبه الكبير جعله يعيش في بذخ فأصبح محط الأنظار، وجمعهما العمل فكانت مساعدة له، بادلته

نظرات الإعجاب ثم غازلها بأروع الكلمات وهو يظنها مسيحية ورغم ذلك انتهز أول فرصة يخلو بها وقال بعفوية:

- بيلسان، أظنك تتفقين معي في أن الدين لله.

- بالتأكيد.

- ألديك مانع في أن أتقدم لخطبتك؟

- أهلي سيرفضون.

- لماذا؟ أعرف أن المسلم يمكنه أن يتزوج مسيحية هنا في العراق دون مشاكل.

- لكني لست مسيحية.

- ولست مسلمة فهل أنت؟

- أنا صابئية والصابئة هم أتباع النبي يحيى بن زكريا عليهما السلام ونعبد الله الواحد الأحد على نهج إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام، والصابئة يشعرون أنهم أقلية ولا يريدون لملتهم أن تندثر لذلك يصرون على الزواج من بعضهم البعض، لذا أقول لك أهلي سيرفضون.

- والحب؟

- لا محل له.

- لكني لا أيئس.

- إذن، ستهيم في البراري وتصبح مجنونًا مثل قيس!

- بيلسان أنا فعلًا أحبك بجنون، ساعديني أرجوك.

- وماذا بيدي، تعرف أن البنت الشرقية ليس بيدها شيء.

- إن كنت مقتنعة بي كزوج لك، فدعيني أقنع أهلك.

- صعب، صدقني.

- لن أيئس، حبي لك أقوى من المستحيل، جربي.

وجربت فكان الرفض، ثم الحوار والإقناع. ولما زاد الإصرار منها ومنه، جاءت الموافقة فتم الزواج وسافرت معه إلى القاهرة، مرت بخيالها تلك الذكريات الجميلة كسرب من عصافير ملونة أنعشت ذاكرتها وأعادتها إلى يوم استقبلها والد ووالدة حاتم في مطار القاهرة، وكيف غمراها بعطفهما وحبهما واعتبراها تعويضاً من الله عن ابنتهما نادية التي هاجرت مع زوجها إلى كندا، فبادلتهما حبًا بحب وأخلصت لهما وحتى بعد وفاة حاتم أصرت على البقاء معهما ولم تقصد فراقهما أبدًا بسفرها لرؤية أخيها الوحيد، وليتها ما سافرت، وبينما هي تلوك أحزانها أطلت عليها السجانة عفراء مرة أخرى بوجهها المكفهر وقالت:

- أنت أيتها الصابئية، قومي معي، فالآمر يريدك.

- ارحميني، فأنا مجهدة ولا أتمارض.

- قومي، فقد زعق لك نبي في السماء وسوف يفرج عنك الآن.

- هه أنا.. ماذا قلت؟

- صدر أمر بالإفراج عنك، هيا.

- يا ألله، يا ألله، يا ألله.

صرخت بيلسان من الفرحة وقامت تمشي معها وهي تبكي حتى وقفت أمام الضابط آمر السجن الذي حياها وقال:

- يا ست بيلسان، أخيرًا قُبل التماسك وأضيف اسمك إلى قائمة المساجين المفرج عنهم بمناسبة زيارة رئيس الوزراء المصري لبغداد.

- الحمد لله، الحمد لله.

- ست بيلسان، سامحينا لو كنا قسونا عليك وأخطأنا في حقك فهذه تعليمات ونحن مجبرون عليها.

- لا عليك، المهم أن أرجع لأولادي.

- يشهد الله أنني حاولت مرارًا أن أساعدك وطلبت من ناشطي حقوق الإنسان أن يلجئوا للسفارة المصرية لكي تزودهم بما يثبت حصولك على الجنسية المصرية ونحمد الله أنهم أخيرًا استجابوا.

- بعد ثماني سنوات؟

- احمدي الله فلولا قيام الشعب المصري بثورة 25 يناير من العام قبل الماضي ما كانت السفارة قد استجابت.

- أقامت ثورة في مصر؟

- نعم وسقط مبارك، ستجدين القاهرة مختلفة عندما ترجعين.

- ومتى سأخرج من هنا؟

- حالًا وسوف تأخذك سيارة من بوابة السجن وتتوجه بك إلى المطار مباشرة.

- الحمد لله.

قالتها بصدق من أعماقها وتنفست الصعداء، شعرت بالأمل يجري في أوصالها ويضيء عقلها من جديد، قدم لها الآمر حقيبة ودعاها لتغيير

ملابسها، دخلت غرفة جانبية، فتحت الحقيبة، لم تكن هذه ملابسها، واضح أن ملابسـها قد بليت أو قرضتها الفئران، فهذه ملابس جديدة وليسـت على ذوقهـا ولكنها تفي بالغرض، ارتدت الملابس ووضعت ملابس السـجن في الحقيبة ثم دخلت غرفة الآمر فقدم لها علبة عصير وقال لها مودعًا:

- سلامي لطفليك وأرجو أن تسامحيني وتذكريني بالخير.

- أرجـو أن تعمـل بجد وإخلاص على تحرير كل السـجينات هنا سـواء عراقيات أو غير عراقيات.

- أعدك أن أساعدهن قدر استطاعتي.

- السلام عليكم.

وخرجت لتأخذ مكانها في سـيارة حكوميـة انطلقت بها إلى المطار وهناك سـلمها السـائق تذكرة الطائـرة ووثيقة السـفر متمنيًـا لها الوصـول للقاهرة بأمـن وسـلامة الله. كانـت مذهولـة ولا تصـدق أنهـا فعلًا أصبحـت حرة، حتـى عندمـا أقلعـت بها الطائـرة من مطـار بغداد ظلـت مرتابة ومتوجسـة أن يحـدث شيء يغير مسـار الطائرة ويمنعهـا من الوصول للقاهرة سـمعت بعـض الركاب حولها يتحدثون عن ثورة يناير وعـن الربيع العربي وأن زمن الطغـاة قـد ولى، وسـقط زين العابدين بـن علي في تونس وحسـني مبارك في مـصر والقذافي في ليبيا وعـلي صالح في اليمن وها هم السـوريون يواصلون ثورتهـم ضد بشـار الأسـد وينهون عهـد توريث الرؤسـاء الحكـم لأبنائهم كأنهـا صيغة ملكية مسـتحدثة للحكم الجمهوري، شـعرت أنها في حلم وأن ما حولها ما هو إلا خيال جميل من وحي أمنياتها، قرصت جلد ذراعها لتتأكد أنها يقظة ولا تحلم التفتت إلى الراكب في المقعد المجاور لها وسألته:

- أحقًّا حدثت ثورة في مصر؟

- نعم، لكنها سرقت.

- كيف؟

- كانت بلا قيادة وبعد ثمانية عشر يومًا سقط مبارك رأس النظام ففرحوا وتسابقوا للظهور على القنوات الفضائية، كل منهم يريد أن ينصب نفسه قائدًا للثورة وينشئ حركة أو حزبًا أو ائتلافًا ثوريًّا ونسوا أن أهداف الثورة لم تتحقق.

- وماذا كانت أهداف الثورة؟

- عيش، حرية، عدالة اجتماعية، كرامة إنسانية.

- ألم يتحقق أي هدف من هذه الأهداف؟

- تحققت الحرية لكنها أتت بجرعة زائدة على قوم لم يستعدوا لها بعد عقود من القهر ففقدوا توازنهم وتحولت الحرية إلى فوضى فالكل يريد نفسه حتى لو أتى من بعده الطوفان فظهر أسوأ ما فينا، وتحولت الحرية إلى لهب يلسع الجميع ويعطل مصالح الأمة.

- ولماذا لم تتحقق بقية أهداف الثورة؟

- لأن النظام لم يسقط واستبدل رأسه الذي سقط برأس أكثر منه جمودًا ورجعية.

- كيف؟

- في الوقت الذي انشغل الثوار فيه بتلميع أنفسهم في القنوات الفضائية كانت هناك قوى أخرى تجيد عقد الصفقات في الداخل والخارج ولها كوادر

منظمة فنجحت في توجيه المسار، وبدلًا من وضع دستور يحدد قواعد الممارسة الديمقراطية، قفزوا مباشرة إلى انتخابات أدت إلى وصولهم إلى سدة الحكم وسرقوا الثورة.

- من هي هذه القوى السياسية؟

- الإخوان المسلمون والسلفيون الذين تحالفوا معهم.

- أعتقد أن الإخوان المسلمين قد ظلموا طوال الثمانين عامًا الماضية ومن عانى الظلم حري به ألا يظلم غيره.

- هذا ما كنا نتمناه، لكن ما حدث هو العكس، فقد انفردوا بالحكم ويريدون أخونة كل شيء كأن مصر ليس فيها إلا هم، لذلك أقصوا كل القوى السياسية الأخرى، وبدءوا التنكيل بالثوار والشباب الذين ضحوا بأرواحهم وعيونهم لتنجح الثورة، ومارسوا معهم أسلوب القهر الذي مارسه نظام مبارك ضدهم.

- بئس الضحية حينما تتقمص شخصية الجلاد، وما موقف أمريكا مما يحدث؟

- أمريكا خشيت أن تعيد الثورة التيار القومي أو الناصري لسدة الحكم فعقدت صفقة مع الإخوان لضمان أمن إسرائيل وتنفيذ الفوضى الخلاقة لإضعاف وتفتيت الدول العربية، ليبقى التوازن في المنطقة لصالح إسرائيل.

زادها الحديث مع مرافقها على الطائرة شعورًا بالغربة والمرارة وأنها مازالت تعيش حلمًا عبثيًا غير معقول، فتحت الصحيفة التي قدمتها لها مضيفة الطائرة، بدأت تقرأ أخبار مصر بلهفة لكنها لم تجد شيئًا مبهجًا، وقبل أن تطوي الصحيفة لمحت صورة ابنها أمجد واسمه مقرونًا بصفة ناشط

سياسي، فرحت وملأها الإحساس بالفخر فأشارت لمرافقها على الطائرة وقالت:

- هذه صورة ابني.

- يا ه.. إنه أحد أبطال ثورة يناير.

- الحمد لله، الحمد لله.

عندما هبطت الطائرة في مطار القاهرة، ودخلت صالة الوصول كانت غير مصدقة، تلفتت حولها خارج الصالة، كل المسافرين وجدوا من يقف لاستقبالهم إلا هي، شعرت بغصة في حلقها وسألت أحد الجنود:

- أين نحن الآن؟

- أنت في مطار القاهرة.

- أيوجد تليفون عمومي؟

أشار الجندي إلى كابينة تليفون على مسافة عشرين مترًا، فتوجهت إليها رفعت السماعة وحاولت أن تطلب رقم بيتها فوجدت الكابينة معطلة، تلفتت حولها حائرة، رق قلب الجندي لها فناداها وقدم لها هاتفه المحمول:

- خذي يا سيدتي، اطلبي من تريدين.

- شكرًا.

طلبت رقم بيتها، فرن الجرس ولا مجيب، نظرت للجندي وقالت:

- هل أطلب رقمًا غيره؟

- تفضلي.

كررت المحاولة على هاتف أحمد فسمعته يرد:

- ألو.
- أستاذ أحمد مختار؟
- نعم، من حضرتك؟
- أنا بيلسان يا أحمد بك.
- بيلسان من؟
- بيلسان كمال عبد الواحد.
- مستحيل.
- صدقني، أنا بيلسان.
- هل نجوت من القصف؟ وأين كنت طوال هذه السنين؟!
- مسجونة.
- وأين أنت الآن؟
- في مطار القاهرة، وصلت توًّا.
- انتظريني، أنا قادم إليك حالًا.

وضع الهاتف على مكتبه ونهض واقفًا، دارت به الدنيا وكاد يفقد توازنه، فجلس ثانية واسترجع شريط الذكريات من بدايته..



بعد لقاء عاصف مع لجنة تفتيش من مصلحة الضرائب، بح صوت أحمد سمير مختار من كثرة الجدل والتأويل والتفسير بينه وبين طاقم موظفيه: المحاسب القانوني، مدير شئون العاملين، المدير المالي، مدير التسويق، أخيرًا صرفهم من مكتبه غاضبًا، ودخل في إثرهم صلاح مدير مكتبه قائلًا بتذمر:

- أحمد بك، المهندسة التي أنهينا عقدها تصرُّ على مقابلتك.

- أهذا وقته؟

- هدئها بكلمة تطيب خاطرها حتى لا تقاضينا.

- ألم توضح لها أن الشركة تمر بضائقة مالية؟

- لم تقتنع وأصرت على التحدث معك.

- منذ متى وهي تعمل معنا؟

- أكثر من سنة وهي مهندسة منضبطة جدًّا.

- لاأذكر أني التقيتها مرة واحدة طوال هذه المدة.

- تعمل في قسم الصيانة وبمجرد أن ينتهي عملها تركب سيارتها وتتجه إلى بيتها، حتى المناسبات الاجتماعية بالشركة لم تكن تحضرها.

- لا بأس، دعها تدخل.

كان يتوقـع أن يقابلهـا فيطيب خاطرها ويوضح لهـا أن الشركة اضطرت لذلك بسبب أزمة مالية إلا أنها دخلت فقلبت كل كيانه:

- مساء الخير.

حيتـه بيلسـان وهـي تدخـل بشـمم وكبريـاء، فتأملهـا بإعجـاب وقـام يصافحها:

- أهلًا وسهلًا، تفضلي.

جلسـت أمامه في شموخ كملكة متوجة وهو يتأملها ويشعر أنها أضاءت الغرفـة بوجهها المشرق ناصع البياض ونظرات عينيها الواسـعتين اللامعتين بالـذكاء، تنفـس بعمق ليملأ صدره بأريج عطرها الأنثوي المبهج وسـألها في مودة:

- تحت أمرك؟

- المفروض يا أحمد بك أن الشركة عندما تسـتغني عن خدمات مهندسـة محترمة مثلي تبلغها قبل الموعد بشهر على الأقل... أليس كذلك؟!

- عندك حق.

- هـذه هي الأصـول، فالشركة إن كانـت عليها أعباء فنحـن أيضًا لدينا أولاد ولهم أعباء ومصاريف مدارس أجنبية بالشيء الفلاني.

- أرجو أن تهدئي.

في تلك اللحظة دخل عامل البوفيه ليضع فنجان القهوة على مكتب أحمد بك الذي أشار بيده نحوها:

- أحضر عصير ليمون للباشمهندسة.

- لا داعي فأنا صائمة.

خرج عامل البوفيه، فقام أحمد بك وجلس قبالتها متوددًا: لم أتشرف باسم حضرتك؟

- بيلسان كمال عبد الواحد.

- بيلسان؟ ما معنى هذا الاسم الجميل؟

- بيلسان اسم زهرة بيضاء ذات رائحة عطرية جميلة.

- واضح يا بيلسان أن الصيام يجعلك متوترة.

- لا، بالعكس.

- لكن، لا نحن في رمضان ولا اليوم إثنين أو خميس؟ فأي صيام هذا؟

- نحن صيامنا مختلف.

- أأنت مسيحية؟

- لا.

- يهودية؟

- أنا صابئية، أي ديانتي إبراهيمية.

- معذرة، فهذه أول مرة أسمع عن ديانة إبراهيمية بهذا الاسم؟

- ذكر القرآن الكريم الصابئة في ثلاث سور قرآنية أذكر منها ما جاء في الآية 62 من سورة البقرة في قوله عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. (صدق الله العظيم)

- ومن هو نبي الصابئة؟

- يوحنا المعمدان أو كما تسمونه يحيي بن زكريا عليهما السلام.

- هل أنت مصرية؟

- عراقية وأحمل الجنسية المصرية.

- هاجرت أسرتك إلى مصر؟

- لا، كان لي زميل مصري يعمل في العراق بالمؤسسة التي أعمل بها ونشأت بيننا قصة حب، ورغم معارضة أسرتي نجح خالي في إقناع أبي فتزوجته، وجئت لأعيش معه في مصر وهكذا حصلت على الجنسية المصرية.

- هل زوجك يعمل معنا هنا؟

- لا، كان يعمل في إحدى شركات المحمول حتى توفاه الله وتركني أتحمل مسئولية طفلين يحتاجان إلى الرعاية والتربية الحسنة.

- أعانك الله..ألم تفكري في أخذ طفليك والعودة إلى العراق؟

- لم يعد العراق بلدًا آمنًا بعد الغزو الأمريكي له في عام 2003م؛ فانتشر العنف والإرهاب، وتم التنكيل بالأقليات. كان عدد الصابئة يتجاوز السبعين ألفًا، اضطر غالبيتهم إلى الهجرة خارج العراق بسبب تعرضهم للتنكيل حتى تناقص عددهم إلى أقل من عشرة آلاف.

- للأسف، الغزو الأمريكي للعراق دمر هذا البلد الجميل.

- يكفي أن تعلم أن الصابئة يجيدون صياغة المعادن كالذهب والفضة وإصلاح الأجهزة الدقيقة، وبارعون في الكثير من الفنون، وقامت عصابات

منظمـة بنهب محالهـم وممتلكاتهـم وقتلهم واغتصـاب نسـائهم.. فأين كنت أذهب وقد تعرض أهلي لكل هذا القهر ومن بقي منهم اضطر للهجرة؟!

- ألم يكن لزوجك تأمين اجتماعيٌّ تستحقون به معاشًا؟

- إنه لا يكفي، فنحن نعيش في مصر الجديدة، والطفلان يدرسان بإحدى المـدارس الأجنبية، ولك أن تتخيل العبء الـذي أتحمله لدرجة أنني أضطر أحيانًـا لبيع قطـع من مجوهراتي حتى لا أحرم الطفلـين من أي شيء يحتاجان إليه.. فلا ذنب لهما فيما يحدث.

تأملها بإعجاب شديد، وقال:

- أحييـك عـلى مـا لمسـته فيك مـن روح التحـدي في مواجهـة الصعاب وأعدك أن أجد حلًّا ويتم تجديد تعاقدك مع الشركة بإذن الله.

- أشكرك.

صافحته واقفة وقد علت وجهها ابتسامة رضا فربَّت بأصابعه على كتفها، وقال:

- من الآن اعتبريني أخًا لك وأعدك أنني إذا لم أجد فرصة لتجديد العقد فسأجد لك عملًا مناسبًا.

- إن شاء الله.

خرجت بخطًى واثقة وهو يرمقها بإعجاب شديد ثم جلس مفكرًا:

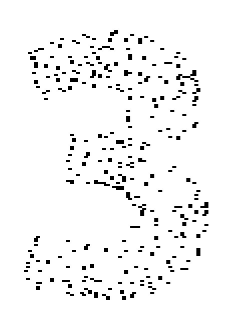
- يا لها من امرأة رائعة، شخصيتها قوية وجمالها عبقري.

ثم ضغط جرسًا فجاء مدير مكتبه مسرعًا:

- أمرك يا أفندم.

- أحضر لي ملف المهندسة بيلسان حالاً.

بعد لحظات أمسك الملف وبدأ يتصفح ويقرأ ما به من معلومات عن تلك الفاتنة التي أثارت إعجابه فوجدها درست هندسة الحاسبات في جامعة بغداد، كما حصلت على دبلومات متخصصة في البرمجة من جامعة شيكاغو بكاليفورنيا، ولكن استرعى انتباهه صورة قديمة لها (ربما ترجع إلى أربع أو خمس سنوات مضت) تبدو فيها ناصعة الجمال ذات وجه ملائكي مدهش، تأمل الصورة بارتياح ثم أعاد تصفح الملف وتوقف كثيرًا عند تاريخ ميلادها ثم هز رأسه، طوى الملف وألصق عليه قصاصة ورق كتب عليها: يجدد عقد المهندسة «بيلسان كمال عبد الواحد» لحاجة الشركة إلى خبرتها.



اطمأنـت بيلسـان بعـد سـماعها صـوت أحمـد مختـار، لكنها بـدأت تلوم نفسها:

– لماذا لم أسـأله عن أمجد وروان، أكان يصارحني لو ألمَّ بهما مكروه لا قدر الله؟

وقفـت تنتظـر وصوله عـلى أحرَّ من الجمـر وتحفَّزت لسـؤاله عن أسرتها بمجـرد أن يصـل، مـرت الدقائق بطيئـة ثقيلة كأنهـا الدهر كلُّـه، فكرت أن تعيـد الاتصـال به لكنها تحرجـت أن تطلب الهاتف من صاحبـه مرة أخرى، فتحملت عذاب الانتظار وهي تتطلع لكل سيارة تقترب، على أمل أن يكون هو أحمد مختار ولكنه لم يأت والانتظار يحرق أعصابها ويوتر مشاعرها، عادت بها الذاكرة إلى يوم مشرق.. كانت تقف بالشرفة تلوح لطفليها:

«أمجـد» بالصف الأول الإعـدادي و«روان» بالخامـس الابتدائي وظلت تتابعهـما حتـى ركبـا أتوبيس المدرسـة وتحـرك مبتعـدًا، التفتت لتجـد المربية الفلبينية «فضيلة» بجانبها تودع الطفلين هي الأخرى، فقالت لها بمودة:

– هيا بنا يا فضيلة لنرى ماذا سنعمل؟

– سيدة بيلسان، ألن تذهبي إلى عملك اليوم أيضًا؟

– نعم.. الشركة أنهت عقدي دون سابق إنذار.

– لماذا؟

- يقولون أزمة مالية.

- وماذا ستفعلين؟

- لاشيء، العمل عمل ربنا سبحانه وتعالى.

- لو كان راتبي يمثل عبئًا عليك..

- أي عبء يا فضيلة، اجلسي، اجلسي.

قالتها بمرح وهي تشد فضيلة لتجلس بجانبها على أريكة في بهو الشقة واستطردت:

- فضيلة، تأكدي أن راتبك هو رزقك الذي قسمه الله لك وليس لي أي فضل في إعطائه لك.

- لكنك إن لم تجدي عملًا فستمرين بضائقة مالية.

- وهل ينسانا الذي خلقنا وعليه رزقنا؟

- حاشا لله.

- من كان رزقه على الله فلا يحزن.. أليس كذلك؟

- لكن الله طلب منا أن نسعى.

- وأنا قابلت رئيس الشركة فوعدني بإيجاد حل..

- وإن لم يصدق؟

- إنني أراسل شركات أخرى ويقيني أن الله لن يخذلني.

- أنت طيبة يا سيدة بيلسان وسيفتح الله لك أبواب الرزق.

- إن شاء الله، والآن أريدك أن تحددي لوازم وطلبات المطبخ لكي ننزل ونشتريها معًا.

ركنت سيارتها في الساحة التابعة للمركز التجاري ثم دلفت من الباب ومعها فضيلة التي حاولت أن تدفع هي العربة الحديدية المخصصة لحمل البضائع لكن بيلسان أصرت أن تدفعها هي، وطلبت من فضيلة أن تذكرها بكل مايحتاجه المطبخ، كانت تعامل فضيلة بمثل ما تحب أن تعامل هي، وكان لديها اعتقاد راسخ بأن الله لم يخلقنا أسيادًا وعبيدًا بل خلقنا جميعا متساوين، ولا فضل لأحدنا على الآخر إلا بعمله الصالح ونفعه للناس، كانت بيلسان كمعظم النساء تستمتع بعادة التسوق، رغم ذلك لم تكن تشتري إلا ما تحتاج إليه وتحرص على قراءة مكونات السلع وتاريخ انتهاء صلاحياتها وتفضل الأجود حتى لو كان الأغلى سعرًا، كانت جولتها بالمتجر هادئة، تتخللها مشاورات وأحاديث جانبية مع المربية فضيلة، ولم يخل حديثهما من ضحكات خفيفة أحيانًا وربما تضرب إحداهما كفها بكف الأخرى في مرح كصديقتين حميمتين، وحينما قاربت العربة على الامتلاء بأنواع مختلفة من المعلبات والأكياس والعبوات والأطباق الورقية التفتت بيلسان إلى فضيلة وسألتها:

- ألم ننس شيئًا؟

- هذا كل ما يحتاج إليه البيت.

- إذن هيا بنا.

توجهتا إلى «الكاشير» لتدفعا ثمن هذه البضائع، فنبهتها فضيلة إلى أن تليفونها المحمول يرن، فسارعت بإخراجه وردت:

- آلو.. نعم أنا بيلسان.. حاضر، شكرًا، مع السلامة.

أغلقت التليفون وصاحت بفرح:

- فضيلة، وافقوا على تجديد العقد.

- ألم أقل إنك طيبة.

- أنت أيضًا، هيا بنا.

■■■

استقبلها بترحاب شديد وصافحها بحرارة ثم سألها:

- هل وقَّعت العقد الجديد؟

- نعم وأشكرك على...

- لا شكر على واجب، تفضلي، أريد التحدث معك.

جلست وهي تنظر إليه باهتمام شديد وتلاحظ أنه يفكر كأنه يحاول أن يختار جيدًا ما سيقوله، رفع عينيه نحوها فوجدها تتأمله بتوجس وقلق فابتسم:

- لقد اطلعت على ملف خدمتك ورأيت أن الشركة فعلًا بحاجة إلى خبرتك ومؤهلاتك العلمية، فكانت مهمتي سهلة ولم أجاملك.

- شكرًا، ألف شكر.

- في المرة السابقة تحججت بأنك صائمة، فهل أستطيع أن أعزمك على فنجان من القهوة اليوم.

- بكل سرور.

- أنا أشربها مضبوطة، فماذا تشربينها؟

- أشربها سادة.

- معقولة؟ لماذا سادة؟

- اعتدت أن أشرب القهوة وفي فمي قطعة من الشيكولاتة فيمتزج طعم البن مع الكاكاو ويعطيني مذاقًا رائعًا.

- يا ااه.! واضح أنك سيدة تجيدين تذوق الحياة.

- أحاول.

- لكني دخلت على بعض مواقع التواصل وعرفت أن الصوم عند الصابئة قاصر على امتناعهم عن تناول اللحوم.. فلماذا رفضت شرب العصير في المرة السابقة؟

- لأنني أصوم كما يصوم المسلمون.

- وأنت صابئة؟

- لا تنس أن زوجي - رحمه الله - كان مسلمًا وطفلينا على دين أبيهما، والأمانة تقتضي أن ألقنهما صحيح الدين؛ ولذلك كان لا بد أن أدرس الدين الإسلامي وأقرأ القرآن الكريم، وأدّى هذا إلى أنني أصبحت أفضل أن أصوم صوم الإسلام وأصلي خمس صلوات بدلًا من ثلاث وربما أكون أكثر خشوعًا في صلاتي من بعض المسلمين، أطفالي يتعلمون مني.

- أفهم من ذلك أنك تصلين صلاة المسلمين فتقرئين القرآن وفي التشهد تقولين: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؟

- نعم وأؤدي الزكاة ولا ينقصني إلا الحج والعمرة.

- إذن فأنت مسلمة؟ لم لا تعلنين إسلامك؟

- سيأتي الوقت الذي أعلن فيه إسلامي.

- وماذا يمنعك ما دمت مقتنعة؟!

- ربما هو عامل نفسي، فلو غيرت في الأوراق الرسمية ديانتي فستنقطع كل صلتي بأهلي الصابئة الذين ولدت وتربيت وعشت بينهم ثلاثة وعشرين عامًا.

- إذن فأنت تفكرين في العودة إلى العراق.

- العودة أصبحت صعبة الآن لكني أحنُّ إلى مراتع الطفولة والصبا، وأحيانًا أستخدم محرك البحث في شبكة جوجل فأنزل على خريطة العراق وتظل رقعتها تكبر وتتسع أمامي على الكمبيوتر حتى تتضح معالم العاصمة بغداد، فأنزل إلى بيتنا في حي اليرموك وأراه مهجورًا وحديقته جفت أشجارها وأعشابها، وأدرك أن الأهل والأحباب قد ماتوا غدرًا ومن نجا هرب ولا أعرف كيف أستدل عليه.

طفرت من عينيها دمعة فناولها منديلًا ورقيًّا:

- أنا آسف لم أقصد أن أقلب عليك الأحزان.

- لا أبدًا، الحياة أحزان وآلام ممزوجة بالأفراح والمتعة، ويجب أن نقبلها كما هي لأننا نعيشها مرة واحدة.

- فعلًا، معك كل الحق.

رفع سماعة التليفون وطلب قهوته والقهوة السادة لها ومعها قالب من الشيكولاتة. ثم قال لها:

- مدام بيلسان لقد كبرت في نظري جدًّا وزاد إعجابي بك.

- أشكرك.

- وما سمعته منك الآن يطلق لساني ويشجعني على أن أصارحك بأنك تسببت لي في مشكلة.

- أنا؟!

- نعـم، فعندمـا رأيتك فتحت الأبواب المغلقة وتجـدد الأمل بعد أن كان محالًا.

- لا أفهم ماذا تقصد؟

- أنا متزوج منذ عشر سنوات، لكن زوجتي لا تنجب.

- هل جربت كل أساليب العلاج؟

- كل مـا يخطـر على بالـك لدرجة أننـا سـافرنا إلى لندن وأجرينـا عملية تلقيـح صناعي، وبعدها تـم زرع البويضة وحدث الحمـل فعلًا لكن الرحم كان أضعف مما يجب فوقع الإجهاض.

- إرادة الله.

- لا نختلف على ذلك ولكن الله شرع لي الحق في الزواج مرة أخرى لعلي أحظى بالخلف الصالح، من حقي أن يكون لي ذرية.

- أفهم، لكن ما دخلي أنا بهذا الأمر؟

- أنـت المرأة التي فتحـت لي باب الأمل من جديد، فهـل تقبلينني زوجًا لك وأبًا لطفليك؟

نظـرت في الأرض وسـاد بينهما الصمت والترقب ثـم فتح الباب ودخل عامل البوفيه ليقدم لهما القهوة مع قالب من الشيكولاتة.

تسارعت دقات قلبه وهو ينظر إليها بمزيج من الأمل والرجاء ثم بادرها مبتسمًا:

- تفضلي.

مدت يدها فتناولت قالب الشيكولاتة، وقالت:

- هذا قالب كبير، فلنتقاسمه، جرب أن تشرب القهوة على طريقتي.

قطعت مربعًا من القالب، وضعته في فمها ثم تناولت فنجان القهوة وارتشفت منه وهي تلوك قطعة الشيكولاتة لتذوب في فمها بلذة واستمتاع، مد يده وأخذ قطعة من الشيكولاتة وضعها في فمه وبعدها رشفة من فنجان القهوة، ثم قال:

- الله، يعجبني أن أتذوق الحياة على طريقتك وأعيشها بالطعم الذي يعجبك وأراها من خلال عينيك الرائعتين، فلا تحرميني من هذا الإحساس الجميل.

- لقد عاهدت نفسي ألا أتزوج بعد المرحوم حاتم وأن أتفرغ تمامًا لتربية الطفلين وأعيش لهما فقط.

- وما المانع في أن أكون أبًا ثانيًا لهما ويكون لهما أخ أو أخت مني.. أرجوك لا ترفضي.

- لقد فاجأتني والقرار ليس سهلًا.

- صارحيني بكل مخاوفك وسوف أساعدك، ويكون كل شيء سهلًا بإذن الله.

- أولًا: لن أبني سعادتي على تعاسة امرأة أخرى.

- تأكدي أنني لن أظلمها ولن أظلمك، سأعدل بينكما.

- ثانيًا: لا بد أن يوافق الطفلان على زواجي.

- وهل طفلاك الصغيران لديهما القدرة على إبداء الرأي في أمر كهذا؟

- نعـم، لقـد عودتهما على ذلك ولابـد أن يتعرفا إليك فـإن قبلاك ورحبا بوجودك معنا سهّلا عليَّ اتخاذ القرار وإن لم يوافقا فلن أوافق.

- ألهذه الدرجة تحترمين عقل طفليك؟

- لأنني لا أبيع المستقبل بالحاضر ولا الآخرة بالدنيا.

- وهل يفهم الأطفال هذا المعنى؟

- مشكلة الكبار أنهم يعتبرون الأطفال لا يفهمون وبالتالي يهملونهم وقد يزيحونهم ويتخذون القرارات بدلًا منهم وهذا خطأ، فالطفل له عقل ويفكر، ولو عاملته كإنسان عاقل فستجده يبهرك ويفاجئك بما لا تتوقع.

- إعجابي يزداد بك أكثر وأكثر.

- إذن موافقة الطفلين أهم من موافقتي.

- عظيم. نفترض أنني حزت القبول منهما.

- يتبقى أن تأتي وتخطبني من حماي وحماتي.

- أهل زوجك؟! أهذا معقول؟

- نعم فهما أهلي الآن هنا في مصر وهما جد وجدة طفليَّ.

- وهل علاقتك بهما تسمح بأن تبوحي لهما برغبتك في الزواج؟

- إنهما على درجة عالية من الوعي والنضج ويحبان لي الخير ويضعانني في مكانة الابنة.

- بيلسان، أنت امرأة مدهشة.

- بالعكس أنا امرأة عادية وهناك من هن أفضل مني.

- أنا أوافق على كل طلباتك حتى لو أردت أن أخطبك من الملك شهريار شخصيًّا.

- لا، شهريار لم يخرج أبدًا من العالم الخيالي الذي نسجته شهرزاد في ألف ليلة وليلة، أما أنا فالملك شهريار بالنسبة لي هو ابني «أمجد» والأميرة شهرزاد هي ابنتي «روان».

- أمجد وروان.. حتى الأسماء تختارينها بذوق رفيع أحسدك عليه.

- أمجد وروان هما مستقبلي وكل دنيتي ولن أضحي بالمستقبل أمام حاضر زائل كما قلت لك.

- ولماذا لا أكون جزءًا أصيلًا في مستقبلك ومستقبل الأولاد؟ لماذا تفترضين أننا لن نستمر؟

- وماذا يضمن أنها لن تكون مجرد نزوة بالنسبة لك؟

- مستحيل، أرجوك افهميني جيدًا، لست رجل النزوات وإلا ما صبرت كل هذه السنين، لكنني أحببتك، صدقيني سأكون مخلصًا لك وأتمنى أن أعيش بقية حياتي معك.

- أرجوك ألا تربكني وأعطني فرصة للتفكير جيدًا.

- لك مطلق الحرية وسأنتظر قرارك وأحترمه مهما كان.

- أشكرك.

وقفت، صافحته وخرجت وهي ترى إعجابه الشديد بها قد زادها ابتهاجًا وثقة بنفسها.

■■■

بعد تناول العشاء، اطمأنت بيلسان أن طفليها أمجد وروان قد انتهيا فعلًا من عمل الواجب المدرسي، سمحت لهما أن يشاهدا بعض البرامج المسلية في التليفزيون وضحكت معهما على بعض المواقف الطريفة في أفلام الكرتون، خلال ذلك قدمت لكل منهما كوبًا من الحليب، وعندما حان وقت النوم دخلت معهما حتى استقر كل منهما في سريره، فقبلتهما ورددت معهما دعاء النوم:

- «اللهم بك أمسينا وبك أصبحنا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور».

ثم خرجت وهي تكرر الدعاء في سرها، فسألتها فضيلة:

- أتريدين مني شيئًا يا سيدتي؟

- لا يا فضيلة، أشكرك، تفضلي، فأنت تقومين مبكرًا.

- تصبحين على خير.

- وأنت من أهل الخير.

فتحت جهاز الكمبيوتر وجلست تتصفح مواقع التواصل الاجتماعي وتقرأ أخبار ما آلت إليه الأمور في موطنها الأول: العراق، وتذكرت كيف نجح زوجها المرحوم حاتم في إقناعها بالسفر معه تاركة الأهل والأحباب والذكريات لتنغمس معه في قصة حب مثيرة أثمرت طفلين رائعين هما قرة عينيها، وتساءلت في نفسها:

- ترى ماذا كان سيئول إليه مصيري لو لم أحب حاتمًا وأسافر معه، ماذا لو تزوجت عراقيًّا وبقيت معه ثم جاءت هذه الحرب اللعينة؟!

ظلت الأفكار تراودها وتصيبها بسهام الحيرة، فتارة تشعر بالندم؛ لأنها انسلخت عن أهلها وعشيرتها، وتارة تفرح لنجاتها من مصير أسود حاق بأهلها فتمزقوا وتشردوا وضاعوا بين قتيل وسجين ومهاجر فرارًا من عذاب أو تنكيل وقهر وسلب، لم تدر بيلسان كم من الوقت مضى وهي شاردة مع أفكارها المرتبكة حتى أفاقت على رنين جرس التليفون فانزعجت واستغربت، إذ لم تعتد أن يتصل بها أحد في مثل هذا الوقت المتأخر وحتى لا يطول صوت الجرس فيزعج النائمين مدت يدها إلى التليفون وردت بقلق:

- آلو.

- بيلسان، مساء الخير.

- مساء النور.. من؟ أستاذ أحمد؟!

- أرجو المعذرة إن كنت قد أزعجتك.

- لا، العفو، خيرًا يا أستاذ أحمد؟

- أتمنى أن ترفعي الكلفة بيننا وتناديني باسمي مجردًا.

- لكن حضرتك.

- بدون لكن.. بيلسان، أعرف أنك مترددة وأخشى أن ترفضي طلبي، وهذه ستكون صدمة كبيرة لي، لذلك أردت أن أطمئنك، وأعاهدك أن أرعى طفليك وأخاف الله فيهما، أما أنت فلن تجدي مني إلا كل الحب والحنان والسعادة.

- أشكرك على هذه المشاعر الطيبة، لكني أخشى أن تكون قد تعجلت، لأنك لا تعرف عني كل شيء.

- يكفيني ما عرفته عنك حتى الآن.

- عندي مسئوليات لن أتخلى عنها أبدًا ولا أعرف ماذا سيكون موقفك.

- قلت لك: أولادك هم أولادي.

- لا أقصد الأولاد، إنني أرعي حماي وحماتي فهما مسنان ويحتاجان إلى رعاية، والمرحوم حاتم كان يوصيني بهما دائمًا.

- وأنا لن أمنعك من رعايتهما بل سأساعدك في ذلك.

- لا أريدهما أن يغضبا مني ولا بد أن يوافقا على زواجي بك وإلا...

- لا تكملي.. أنا مستعد للذهاب إليهما وإقناعهما.

- الموضوع يحتاج إلى تمهيد.

- لا بأس.

- ما رأيك أن تأتي لتناول الغداء معنا في نادي الشمس يوم الجمعة.

- لكني لست عضوًا.

- سأدعوك وتكون في ضيافتي، هذه فرصة ليتعرفوا إليك باعتبارك رئيسي في العمل، وإن أحبوك وارتاحوا لك فسأتحدث معهم في أمر الزواج.

- أتقصدين الأولاد؟

- الأولاد والجد والجدة، فيوم الجمعة نقضيه معًا في النادي.

- والله فكرة.

- إذن دعنا نبدأ بالتعارف والجو الأسري أولًا والتوفيق من الله.

- أشكرك وسأنتظر يوم الجمعة على أحرَّ من الجمر.

- تصبح على ألف خير.

- وأنت أيضًا.

وضعت السماعة وهي تشعر بالحيرة، قامت إلى غرفة نوم الأطفال، أطلت عليهما وهما نائمان، ابتسمت بفرح ثم دخلت غرفة نومها.

■■■

ودّعـت أحمد عند بوابـة النادي ورجعت متأثرة بكلمات الحب والمشـاعر الجميلة التي باح بها، وفجأة رن جرس المحمول في جيبها، فأخرجته وقرأت رقـمًا غريبًا على شاشـته، تـرددت في الرد، لكن الفضـول دفعها للضغط على الزر وقربت الجهاز من أذنها لتسمع صوتًا أليفًا:

- بيلسان كيف حالك؟ بيلسان أتسمعينني؟

- آلو.. من أنت؟

- ألم تعرفي صوتي؟ معقولة يا بيلسان؟

- أكاد لا أصدق.. أأنت عاتكة؟

- فعلًا، وأشتاق جدًا لرؤيتك يا بيلسان.

- أين أنت؟ صوتك قريب.

- أحدثك من مدينة السادس من أكتوبر.

- متى وصلت مصر؟

- منذ أيام، أين أنت يا بيلسان أريد أن أراك؟

- أنا حاليًا في نادي الشمس مع الأولاد.

- أين يقع هذا النادي لكي أجيء إليك؟

- لا، إنه بعيد، في ضاحية مصر الجديدة.

- أنا متلهفة لرؤيتك ورؤية أطفالك، دليني على الطريق وسوف أجيء.

- عاتكة، حبيبتي، أنا أيضًا سعيدة جدًّا لسماع صوتك وكلي شوق إليك ولكن المسافة بين السادس من أكتوبر ومصر الجديدة تعتبر سفرًا طويلًا، عندي حل وسط.

- قولي.

- كافيه «الكرخ» بالمهندسين فهو ملتقى العراقيين.

- أهو قريب من شارع جامعة الدول؟

- نعم، يتفرع من شارع سوريا، إنه بدروم عمارة وحوَّله مستثمر عراقي إلى كافيه أو مقهى راق ومكيف الهواء وتسمعين فيه موسيقى كلاسيك ويجتمع فيه المثقفون والفنانون وأهل الرأي.

- بالتأكيد زوجي قصي سيعرفه، ألتقيك هناك بعد ساعتين.

- لا.. في تمام التاسعة حتى أكون قد أعدت حماي وحماتي إلى البيت.

- لا بأس يا حبيبتي، لا بأس.

- مع السلامة.

هرولت نحو أسرتها وكادت تطير من الفرح وهي تبادرهم:

- أنا سعيدة جدًّا وسوف أعزمكم على آيس كريم.

التفتت حماتها نحو زوجها بنظرة ذات مغزى كأنها تقول له: جاءك كلامي؟

فسأل بيلسان مراوغًا: ألا تخبرينا بما أسعدك لكي نفرح معك؟

وباغتتها حماتها مباشرة:

- هل ترقيت في عملك بالشركة؟

جلست بيلسان بجانبها والفرحة تسيل من كلماتها:

- عاتكة، جارتي وصديقة عمري، جاءت من العراق وظلت تبحث عني حتى عثرت على تليفوني وحدثتني، سأذهب للقائها وأرجو أن أعرف منها ما يطمئنني على أخي عدنان.

- إن شاء الله ستخبرك أنه بخير.

- يا رب.

- متى ستقابلينها يا ابنتي؟

- بعد ثلاث ساعات.

- إذن هيا بنا.

- لا، لا.. مازال الوقت مبكرًا وقد عزمتكم على آيس كريم أو أية حلوى تختارونها.

■■■

كافيه «الكرخ» يشغل بدروم إحدى عمارات حي المهندسين بالقاهرة وهو أقرب إلى المطعم الفخم، أقامه أحد اللاجئين العراقيين، فأصبح ملتقى لجموع الفارين من الحرب الأمريكية الغاشمة على العراق وما استتبعها من صراع طائفي مدمر بين الشيعة والسنة وجر في أذياله طوائف أخرى تبحث عن حقوقها الضائعة مثل: الأكراد والتركمان والأرمن والصابئة والكلدانيين والكاثوليك وغيرهم، يتميز كافيه «الكرخ» بطابع عراقي صرف، بداية

من العزف الحي للموسيقى العراقية، وأحيانًا غناء جماعي لبعض المقامات العراقية الشهيرة وانتهاء بتقديم الأكلات والمشروبات العراقية بنفس الطريقة التي تقدم بها في العراق، فقائمة طعامه بها الجص (الشاورمة) والتكة والتشريب (الفتة) والكباب العراقي مع الأرز البرياني وأكواب اللبن الرائب والشاي يقدم في استكانات (أكواب زجاجية صغيرة) إضافة إلى القهوة بالهيل (الحبهان)، وفي الشتاء لا يفوته أن يقدم لرواده أطباق الشلغم (اللفت) المسلوق والمحلى بالدبس أو عسل التمر.

منذ أيام أعلن «حاج غفور» صاحب الكافيه عن حضور العازف العراقي الشهير «نصير شمة» هذه الليلة بصحبة فرقته الموسيقية ليس فقط لإمتاع الحضور بعزفهم الرائع ولكنه سيجمع طلبات اللاجئين العراقيين للمساعدة في حل مشاكلهم سواء مع السفارة العراقية بالقاهرة أو وزارة الخارجية أو مفوضية الأمم المتحدة لشئون اللاجئين، في تمام التاسعة، دخلت بيلسان فقام حاج غفور عن مكتبه الملاصق لباب الكافيه واستقبلها بمودة وترحاب كبير:

– يا هلا.. ألف ومائة مليون هلا بوردة العراق، كيف حالك يا ست بيلسان؟ وكيف حال طفليك وحماك الحاج عبد العظيم والسيدة زوجته؟

– جميعهم بخير، كيف حالك أنت يا حاج غفور؟

– ما دمت أراك يملؤني نور وجهك الوضاء بالبشر والتفاؤل والسعادة.. تفضلي يا زينة النساء.

– ما شاء الله، الكافيه مزدحم جدًّا الليلة.

- العراقيون أهل مودة ومحبة، هاهي عاتكة تنتظرك في ذاك الركن البعيد، فاذهبي إليها.

- ألم يصل بعد أستاذ نصير؟

- إنه على وصول ولن يتأخر، تفضلي.

صرخت وهي ترتمي في حضنها وظلت تقبلها ثم تتأمل وجهها وتعيد تقبيلها وتضمها ثانية ثم غلبهما البكاء فأجهشتا بصوت مسموع، تنبهت بيلسان لنظرات رواد الكافيه، فأخرجت منديلًا ناولته لعاتكة ومنديلًا آخر جففت به دموعها وسألت عاتكة وهي تجلس:

- ماذا حدث للعراق يا عاتكة؟

- إنه يتمزق يا حبيبتي، العراق لم يعد العراق وانكفأت كل منهما على الأخرى لتواصل البكاء، في تلك اللحظة ارتفع صوت أحد رواد الكافيه يردد أبياتًا من قصيدة: «غريب على الخليج» لبدر شاكر السياب:

صوت تفجّرَ في قرارة نفسي الثكلى: عراقْ.

كالمد يصعد، كالسحابة، كالدموع إلى العيون

الريح تصرخ بي: عراقْ

والموجُ يُعول بي: عراقْ، عراقْ، ليسَ سوى عراق!

البحر أوسع ما يكون وأنت أبعد ما تكونْ

والبحر دونك يا عراق.

بالأمس حين مررت بالمقهى، سمعتك يا عراقْ..

امتدت يد حاج غفور تربّت على كتف بيلسان:

- هوني عليك يا ابنتي، فالعراق أكبر من كيد الكائدين.

- وطننا يتمزق، وطننا يضيع منا يا حاج غفور.

- لـن يضيع ولن يتمزق بعـون الله ومهما تآمر المتآمرون ومهما انسـعرت الكلاب، فالله معنا والمقاومة العراقية تكبر وتحقق انتصارات.

- أعندك أخبار يا حاج غفور؟

- كل يوم تشن المقاومة هجومًا على الأعداء ولن نستسلم أبدًا.

- يا رب، يا رب انصر العراق على أعدائه يا رب.

- اسمحا لي أن أقدم لكما الليلة عشاء مميزًا.

- أشكرك يا حاج غفور فعاتكة ضيفتي الليلة.

- أنت ضيفتي يا بيلسان وقد حضرت قبلك.

- لا أنـت ولا هـي أنا أكبر منكـما وعزومتي لا ترد، سـوف أبدأ بشراب منقوع الهيل المثلج لأنه فاتح للشهية ويساعد على الهضم.

ابتعد وهو يلوح لهما متجهًا إلى المطبخ، ابتسمت بيلسان وقالت:

- حاج غفور هذا مثال للوطنية الصادقة.

- عراقي أصيل.

- من حسـن حظي أنـه كان هنا عندما توفي زوجي فوقف بجانبي وشـد أزري كأنه أبي.

- ومتى توفي زوجك يا بيلسان؟

- منذ عامين، في صيف عام 2003م.

- كانت الحرب قد بدأت؟

- نعم، ولهذا اضطررت للبقاء في مصر.

- وكيف يعاملك أهل زوجك؟

- نعم الأهل والله يا عاتكة، لقد ورثا من ابنهما كل الحب الذي كان يحمله لي، إضافة إلى أنهما كبيران في السن، ومن القسوة أن أحرمهما من حفيديهما فقد يعوضانهما عن فراق حاتم.

- وهل تعملين؟

- نعم، هيا يا عاتكة.. أخبريني، ألا تعرفين أي شيء عن أخي عدنان؟

- في بداية الحرب، خرج مع زوجته وأطفاله وكانوا يحملون حقائب سفر ومن يومها وبيتكم مغلق، أعتقد أنه غادر العراق.

- لا يا عاتكة، إنك تعرفين شيئًا ولا تريدين...

- صدقيني والله، هذا ما حدث.

- يا عاتكة، أخي عدنان كان يتصل بي حتى سقطت بغداد، وآخر شيء قاله لي أنه لن يترك العراق وبعدها انقطع الاتصال بيننا تمامًا.

- إنك لا تتصورين حجم الدمار الذي حدث بالعراق.

- أعرف، أعرف يا عاتكة.

- أكثر من مليونين من العراقيين غادروا ديارهم قسرًا لينقذوا أطفالهم وينجوا بهم من أهوال الحرب، منهم من توجه إلى سوريا أو الأردن أو لبنان أو مصر، ومنهم من لديه إمكانيات ويجيد اللغة فتوجه إلى أوروبا.

- عدنـان لـو ذهـب إلى أي مـكان في العـالم كان سـيتصل بي، إنـه مازال موجـودًا بالعـراق، وقلبـي يحدثني أنه حي يـرزق، لكن ما الـذي يمنعه من الاتصال بي، لا أدري!

- هذا ليس له إلا تفسير واحد.. أن يكون قد انخرط في صفوف المقاومة العراقية.

- وأسرته؟

- إما أنه نقلهم إلى مكان آمن أو لا قدر الله قد أصابهم مكروه.

- الخوف عليهم يعذبني يا عاتكة.

أخرجـت مـن حقيبتهـا مفكـرة صغـيرة، تصفحتهـا باهتـمام ثـم قالت:

- بيلسان، سجلي هذا الرقم عندك.

- رقم من هذا؟

- هذا ابن عم زوجي قصي.

- أين زوجك، لماذا لم يأت معك؟

- ها هو مع رفاقه هناك وكان يقرأ أشـعار بدر شـاكر السياب منذ قليل.. إنه يعرفك وسينضم إلينا حالًا.

- وماذا يعمل ابن عم قصي هذا؟

- مثل هذا السؤال لا أحد يجيب عنه إجابة مباشرة في العراق الآن.

- فهمت، فهمت.

- كل ما أعرفه أنه يعمل مع المقاومة العراقية وبين فترة وأخرى يسافر إلى الأردن لينجز بعض المهام السرية ثم يعود وفرصتنا الوحيدة للاتصال به عندما يتواجد في الأردن

- ومتى يتواجد هناك؟

- لا أحد يعرف، سجلي رقم الهاتف وكرري المحاولة في الاتصال به من وقت لآخر حتى يصادفك الحظ ويرد عليك، ربما تكون لديه أخبار عن أخيك عدنان.

فرحت بيلسان بالرقم وكتبته بتركيز شديد حتى حفظته ذاكرتها ومنَّت نفسها أن تصل من خلاله إلى أخبار مطمئنة عن أخيها.

انضم إليهما قصي زوج عاتكة وفوجئت بيلسان بأنه وصل إلى القاهرة قبل مجيء زوجته بعدة أشهر ولأنه كان يعمل مديرًا للائتمان بأحد فروع بنك الرافدين فقد نجح بخبرته في استثمار أمواله في إقامة شركة للتجارة في أسهم الشركات بالبورصة المصرية وجذب مدخرات بعض اللاجئين العراقيين الذين أودعوا أموالهم لديه ليؤمن لهم مصروفًا شهريًّا من خلال شراء وبيع أسهم البورصة بالطريقة التي تحقق لهم الأرباح قدر الإمكان، كان قصي متحدثًا لبقًا يتمتع بقدر كبير من الثقافة والمعرفة، فأخذهما بحديثه الحلو إلى ذكريات الصبا في مدارس حي المنصور والهروب إلى حديقة الزوراء لمواعدة عاتكة واستمرار الحب أيام الجامعة والرحلات الطلابية إلى الحبانية وإلى جزيرة بغداد وإلى أربيل والموصل، ذكريات بطعم العسل زادها تألقًا وجمالًا ذلك العشاء البغدادي الرائع الذي قدمه لهم حاج غفور فأكلوا بمتعة مضاعفة وضحكوا ونسوا أحزانهم، وفجأة دوَّى في الكافية صوت

تصفيق وقاموا يستقبلون العازف الشهير «نصير شمة» الذي رفع يديه يلوح لهم ويحييهم بابتسامة يغلفها الحزن مما يضفي على وجهه النحيل هيبة ووقارًا وأخذ يصافحهم بحرارة ويطوف على الموائد يوزع ابتساماته وقبلاته ويستمع إلى شكاواهم ويأخذ منهم الطلبات المكتوبة مع وعد بالعمل على تحقيقها كانت معظم الشكاوى من عدم توافر فرص عمل أو نقص الموارد المالية والحاجة إلى مساعدة، بعض الحالات كان متأكدًا من أنه سيحلها بالتعاون مع موظفي السفارة العراقية أو مفوضية الأمم المتحدة وحالات أخرى كان يطلب منها سرعة اللقاء في «بيت العود» الذي يشرف على نشاطه بشارع القلعة بالقاهرة سواء لتسليمهم مبالغ مالية كمساعدة مما يستطيع أن يجمعه من بعض الخيرين أو لاستلام بقية الأوراق والمستندات المطلوبة لحل مشكلاتهم.

أخيرًا وقعت عينا الموسيقار على السيدة بيلسان فصاح:

– يا هلا !!!.. الآن عرفت سبب كل هذا الزحام والزخم العراقي الجميل..

– جئنا نحتفل بك يا فنان يا عظيم.

– لا، بل جاءوا ليسعدوا بلقاء وردة بغداد العطرة الجميلة السيدة بيلسان.

صافحها بحرارة ودعاها أيضًا لزيارته في بيت العود فسألته إن كان يعرف شيئًا عن أخيها المختفي عدنان فأكد أنه مستمر في البحث وربما يبلغها قريبًا بأخبار طيبة ثم رفع يدها وصاح بصوت يملؤه الفخر:

- حيوا معي هذه السيدة العراقية الرائعة، فقد ساعدت في جمع تبرعات كثيرة لمساعدة اللاجئين العراقيين من خلال رسائلها على الإنترنت.

دوّت القاعة بالتصفيق، فحنت بيلسان رأسها ثم جلست يلفها الحياء والخجل.

كان عازفو التخت المصاحب له قد أخذوا أماكنهم وبدءوا «يدوزنون» (يضبطون أوتار آلاتهم) فلوّح الموسيقار لكل محبيه وسارع بالانضمام لفرقته وبعد لحظات خيم الصمت على الجميع وبدأت تنساب من تحت أناملهم نغمات الموسيقى الشرقية الأصيلة ليتغنى أحدهم بصوت دافئ:

لما علمتُ بأن القومَ قد رحلوا

وراهبَ الدير بالناقوس منشغلُ

شبكتُ عشري على رأسي وقلت له:

يا راهبَ الدير: هل مرت بك الإبلُ

فحن لي وشكى وأنَّ لي وبكى

وقال لي: يا فتى ضاقت بك الحيلُ

انطلقت آهات الاستحسان وصاح أحدهم:

- رحمك الله يا محمد يا قبنجي.

وقال آخر: اايه.. أين أنت يا مقاهي بغداد؟ أين؟

وقال ثالث: أهلِّي علينا يا رائحة الزمن الجميل، أهلي!

تواصل العزف والغناء لتتداعى إلى وجدانهم أجمل صور الذكريات وجلسات السمر الحلوة سواء في مقاهي شارع الرشيد وشارع السعدون أو كازينوهات ومطاعم أبي نواس أو حفلات الشواء في حدائق بيوتهم

الجميلة، هاجت ذكريات الجميع واشتعلت فيهم جذوة الحنين للوطن الرائع العـراق، فلم تدر بيلسـان أن الوقـت سرقها وبمجرد أن وقعـت عيناها على سـاعة الحائـط المعلقة أمامها، أدركت أنها تأخـرت والتفتت إلى عاتكة بنظرة حائرة، قرأتها صديقتها فأومأت لها وطمأنتها قائلة:

- أتحبين أن نأتي لتوصيلك أنا وقصي؟

- لا يا حبيبتي، معي سيارتي، لكني فعلاً تأخرت، ومضطرة أن أستأذنكما.

قامت وصافحتهما ثم خرجت مسرعة، ركبت سيارتها وانطلقت إلى بيتها.

■■■

دعـت ربهـا أن يكون حماهـا وحماتها قد ناما ولا يشـعرا بعودتهـا المتأخرة هكذا، خرجت من السـيارة وأمَّنت عليها بتشـغيل الإنذار، خطت نحو باب البيـت، فتحتـه في حـذر ثـم دخلت وأغلقـت البـاب، كان البيت مثـل فيللا مـن طابقـين وحديقة خلفية: الطابـق الأول لحماها وحماتهـا والطابق الثاني لها ولطفليهـا ومعهـا المربية، اتجهت إلى السـلم، فسـمعت حركـة خفيفة بغرفة الاستقبال، كان بابها مفتوحًا، التفتت لتجد حماتها جالسة قرب الباب، ترمقها بنظرة غضب، ارتبكت بيلسان وسألتها في قلق وأصبعها يضغط زر النور:

- ماما.. ماذا يوقظك حتى الآن؟

- قلقت عليك، أيصح يا بنتي أن تتأخري هكذا؟

- غصبًا عني والله يا ماما، أنا آسـفة جدًّا وأعدك ألا تتكرر ثانية، التقيت بعاتكة ومجموعة كبيرة من العراقيين وتمنيت أن أجد عندهم أخبارًا تطمئنني على أخي عدنان لكن للأسف.

هرشت العجوز جبينها بطرف سبابتها وهي تتأمل بيلسان غير مصدقة ثم سألتها:

- أكان المهندس أحمد معك؟

- أحمد من؟ أتقصدين صاحب الشركة؟

- نعم.

- وماعلاقته بلقاء يجمعني بصديقتي منذ الطفولة هي وزوجها؟

- اجلسي يا بيلسان، أريد التحدث معك.

ارتمت بيلسان في أقرب مقعد وهي تشعر بالتوتر والإحباط وأن جدار الثقة بينها وبين العجوز بدأ يهتز، واستطردت العجوز قائلة:

- تعرفين يا بيلسان أني أخاف عليك كابنتي وأعاملك فعلًا كابنة لي وليس زوجة ابن.

- نعم.

- لذلك عندما أرى شيئًا يقلقني عليك لا بد أن أصارحك.

- أكيد.

- واليوم ونحن في النادي لاحظت أن المهندس أحمد يحمل لك نظرات المحب الولهان، فهل تبادلينه نفس المشاعر؟

- والله يا ماما لولا أنني متأكدة أن كلامك هذا نابع من حبك لي لحزنت جدًّا واعتبرته سوء ظن بي ولكني فقط أذكرك بقريبك الضابط المتقاعد الذي أتى العام الماضي وحدثك عن رغبته في الزواج بي.

- ربما لم يعجبك.

- لا يا ماما، أرجوك تذكري بماذا أجبتك يومها.. ألم أعدك بأن أحدًا من الرجال لن يلمسني بعد المرحوم حاتم؟

- نعم.

- وماذا تغير لكي تظني بي ظن السوء هكذا؟

- الزمن يغير المشاعر يا بنتي.

- اطمئني يا ماما، ليست بيلسان التي تغير جلدها أو تتنكر لمبادئها، ثقي بي.

- كلي ثقة بك يا حبيبتي، وكل يوم تكبرين في عيني أكثر وأكثر.

- أتمنى أن تجعلك هذه الثقة تطمئنين فلا تتركين مخدعك وتسهرين وأنت قلقة عليَّ هكذا.

تنهدت العجوز وقالت في آسى:

- جفاني النوم يا بنتي وافترستني آلام الروماتيزم التي تنهش عظامي بضراوة كلما تمددت طلبًا للنوم والراحة.

- ألم تأخذي العلاج؟

- أخذته دون جدوى.

- ربما اعتاد جسمك هذا العلاج، سوف أذهب بك إلى طبيب آخر ليبدل هذا الدواء.

- إن شاء الله، هيا، اصعدي لتنامي، فوراءك عمل وأطفال يحتاجون رعايتك.

- وأنت ألن تدخلي لتنامي؟

- أفضل أن أبقى جالسة وأدفئ ركبتي حتى يأتيني النوم.

– إذن دعيني أدهن ركبتيك بالمرهم المسكن وبعدها ستنعمين بنوم هادئ.. هيا.

أحضرت بيلسان أنبوبة الدهان وكشفت عن ركبتي العجوز وأخذت تضع فوقهما قطعة من الدهان وتفرده بطرف إصبعها لتفرشه فوق الركبة وتساعد الجلد على تشربه، ثم غطت ركبتيها وقالت:

– ما شاء الله، تتمتعين بساقين جميلتين يا ماما.

– كانتا جميلتين ولكن الزمن يغير كل شيء يا بنتي.

– لا، الجميل يظل جميلًا على الدوام.

مدت بيلسان ذراعها تحت إبط العجوز وساعدتها على القيام وتوجهت بها إلى غرفة النوم ثم قبلت جبينها قائلة:

– تصبحين على خير.

– وأنت من أهله يا حبيبتي.

صعدت بيلسان، فتحت باب شقتها ودخلت على أطراف أصابعها نظرت من باب غرفة الأطفال، رأت طفليها أمجد وروان ينامان في سريريهما كطائرين من عصافير الجنة استدارت فقابلتها فضيلة تخرج من غرفتها وهي تفرك عينيها من آثار النوم قائلة:

– أتيت يا سيدتي؟

– فضيلة، ادخلي واستكملي نومك.

– ليست بي حاجة للنوم الآن.

– إذن اجلسي حتى يأتيك النوم.

كانت بيلسان قد شغلت الكمبيوتر، فجلست أمام شاشته تقلب الصفحات وتتنقل بين مواقع التواصل الاجتماعي لتطلع على ما يجري في العراق، لعلها تجد شيئًا يطمئنها على أخيها، كانت الصفحات مليئة بصور القتلى والسيارات المحترقة وبقع الدم والبيوت والمباني الحكومية والجسور المهدمة، حتى وجوه الأحياء والناس في الشوارع كانت مطبوعة بالحزن والألم على فراق الأهل والأحبة وكل هذا الدمار والحزن الذي أصاب حياتهم، انسابت الدموع على خديها، قامت فضيلة تربت على كتف بيلسان مواسية:

- كفاك حزنًا وبكاء يا سيدتي، فهذه كلها أقدار كتبها الله ولا راد لقضاء الله.

- يا ربي.. ماذا فعل العراق ليدمر هكذا؟

قالتها بيلسان من بين دموعها فقالت فضيلة:

- أتعرفين يا سيدة بيلسان، عندما أنظر إليك وأراك تتعذبين وأنت تشاهدين صور الدمار في العراق أحمد الله أن أهلي لا يملكون جهاز كمبيوتر مثل هذا فلا أتواصل معهم ولا أرى صور تعذيبهم والتنكيل بهم فأتعذب وأنام باكية مثلك.

احتضنتها بيلسان وقبلتها قائلة بنبرة صدق:

- أنا أيضًا يا فضيلة عندما أتأمل صبرك وجلدك وإيمانك القوي بأنك تجتهدين وتدخرين أجرك لتغيري به أحوال أهلك وعشيرتك وتمدي لهم يد العون أستمد منك الأمل.

- الضعفاء أمثالي لا يعيشون إلا بالأمل يا سيدتي.

- كلنا بحاجة للأمل يا فضيلة، الأمل جعلني أشعر بأن أخي عدنان لم يمت وأنه مازال حيًّا يرزق، بالأمل أحس أن لقائي بعدنان حقيقة وسوف ألتقيه بإذن الله حتى لو طال الأمد سألتقيه.

- لا تفقدي الأمل أبدًا.

- نعم، فرحمة الله واسعة وأنا لا أيئس أبدًا من رحمته.

قالتها بيلسان وهي تجفف دموعها فسألتها فضيلة:

- هل أعد لك مشروبًا ساخنًا.

- أشكرك، لا أريد شيئًا سوى أن تدخلي لتنامي.

- وأنت؟

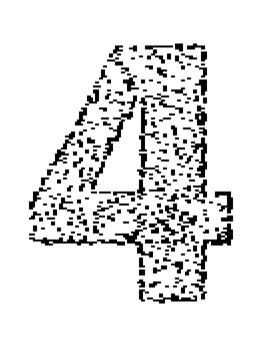
- سأنام.. كفاني ما نلته من تجدد الأحزان الليلة.

■■■

سقطت عليها أشعة الشمس وهي واقفة أمام صالة الوصول بالمطار، تنتظر مجيء أحمد ليأخذها بسيارته، وفجأة وقعت عيناها على زجاج أحد البوابات وكانت صورتها تنعكس على الزجاج فرأت نفسها وتعجبت من تلك الملابس التي ارتدتها وخرجت بها من سجن بغداد، شعرت بالأسى وقالت لنفسها:

- أبعد كل هذه السنين يراني أحمد على هذه الهيئة؟ لا، مستحيل، كنت دومًا مثالًا للأناقة والشياكة فلا يصح أن يراني هكذا.

■■■



فرح أحمد مختار فرحة غامرة بعودة بيلسان ولولا أنه سمع صوتها وتحدث إليها ما صدق أبدًا أنها على قيد الحياة، قاد سيارته متوجهًا إلى المطار وشريط الذكريات يدور في عقله بومضات متلاحقة، فتذكر كيف أحب بيلسان التي أعادت إليه الأمل في أن ينجب وتكون له ذرية، وكيف ألهمته أن يتمرد على الحياة الرتيبة التي يعيشها مع زوجته أستاذة الجامعة، طوال الطريق كانت الذكريات تتفجر داخله، فتذكر يوم أن خرج من الأسانسير، سمع صوت جهاز التليفزيون ينبعث عاليًا من شقته، فتح الباب ودخل ليجد الشاشة العريضة الكبيرة تضيء غرفة المعيشة ولا أحد يتفرج أو يتابع المذيعة وضيوفها، تناول الريموت وخفض الصوت ثم اتجه إلى الداخل مناديًا:

- يا سوسو.

- جئت يا حبيبي، عملت لك صينية خرشوف ستأكل أصابعك وراءها.

أقبلت الدكتورة سعاد من المطبخ وعلى شفتيها ابتسامة سرعان ما اختفت وهي تسمع زوجها:

- يا سوسو.. ما دمت مشغولة في المطبخ فما الداعي لترك التليفزيون يعمل وحده هكذا وبصوت مرتفع؟

- يا حبيبي، أنا أسمع التليفزيون وأنا أطبخ.

- سبحان الله في طبعك يا سعاد.

- أنا هكذا.. أعمل أشياء مختلفة في وقت واحد فما العيب في ذلك؟

- لا، أبدًا.

قالها وتنهد بغير اقتناع إذ أدرك أنه اقترب من عقدة النقص لديها، فالبيت عندما يلفه الصمت يذكرها بخلوه من الأولاد؛ لذلك التمس لها العذر ولم يعلق أكثر من ذلك ثم اتجه إلى غرفة النوم فنادته:

- أحمد، أنا تقريبًا جهزت كل الأكل، هل أتعشم بعد تبديل ملابسك أن تساعدني فقط في عمل السلاطة الخضراء.

- حاضر، لكنني سأصلي المغرب أولًا قبل أن يحين أذان العشاء.

- لا بأس.

بعد لحظات وقف يساعدها في تقطيع الجزر والخيار وسألها بمودة:

- وأخبار الجامعة والطلبة؟

- الجامعة للأسف مليئة بالصراعات وهذا ينعكس على مستوى الطلبة وحالة البحث العلمي التي أراها تتدهور.

- لا تأخذي الأمور على أعصابك.

- غصب عني والله يا أحمد وهذا يتعبني ويوترني.

- ما دمت تبذلين جهدًا كبيرًا في المحاضرات والقراءة والبحث فيجب أن نستعين بشغالة توفر عليك عناء الوقوف لساعات في المطبخ.

- قلتهم أحسن، التجارب علمتني أن الشغالة ضررها أكثر من نفعها.

- براحتك.

قالها وهو يشعر مرة أخرى بأنه اقترب من حافة عقدة النقص لديها فآثر السكوت رغم عدم اقتناعه لكنه يحرص دائمًا على مراعاة مشاعرها، لم تكن الدكتورة سعاد تتمتع بقدر كبير من الجمال الأنثوي لذلك كانت شديدة الغيرة من أية أنثى تدخل بيتها حتى ولو كانت شغالة، كان المهندس أحمد مختار يدرك ذلك جيدًا ولكنه في قرارة نفسه يعترف أنها كامرأة تمتلك من الجاذبية ما جعله يقع في حبها عندما التقاها وردة متفتحة منذ عشر سنوات، إضافة إلى أنها تنحدر من عائلة عريقة الأصل. وكالعادة، تناولا طعام الغداء متأخرًا ثم قامت فأعدت الشاي بالنعناع الذي يحبه زوجها وقدمته له أمام التليفزيون:

- الشاي يا أحمد.

- اجلسي، لنشربه قبل أن يبرد.

- دقيقة واحدة سأرتب المطبخ وأعود إليك.

ولما كان يجتهد في أن يكون له هوايات يملأ بها وقت فراغه عندما تنشغل عنه بأبحاثها وقراءاتها المتخصصة أخذ يقلب الشاشة بحثًا عن القنوات الرياضية، حتى عثر على ضالته: مباراة في دوري أبطال أوروبا بين فريقي: الأرسنال الإنجليزي وريال مدريد الإسباني، عادت من المطبخ لتجده منتبهًا بكل حواسه لسير المباراة فعلقت في تهكم: أنت بدأت؟

- مباراة إيقاعها سريع جدًّا، انظري الكرة لا تتوقف أبدًا.

- ألن تشرب الشاي؟

- سأشربه، اجلسي.

- سأتركك لكرة القدم وأجلس على مائدة الطعام لكي أراجع أوراق البحث.

- يا ااه مباراة هائلة.! الله، الله عليكم.

مضى الوقت وكلا الزوجين مشغول بشيء مختلف وكأنهما جزيرتان منعزلتان، كل منهما انكفأ على مشاغله وأفكاره الخاصة، راضيًا بأن تمضي الحياة هكذا على وتيرة واحدة كأنهما نزيلان في فندق، سيقضيان به عدة ليالٍ ثم يفترقان، واستقر في قلب وعقل كل منهما شيء من الرضا بأن هذا هو قدرهما معًا ونصيبهما من الحياة، فقبلاه على أنه أمر حتمي وأنهما لو اطلعا على الغيب لاختارا نفس هذا الواقع الهادئ المستكين.

رن جرس التليفون، فرفع أحمد السماعة وتحدث كثيرًا إلى أخيه الأصغر الذي اطمأن عليه وأبلغه تحيات أسرته ثم أبلغه أن ابنته الصغيرة تريد أن تكلمه، وصدمه سؤالها البريء:

- هل حضرتك لا تذكر عيد ميلادي؟

- اعذريني يا حبيبتي، والله كنت مشغولًا جدًّا، لكن هديتك عندي وغدًا بإذن الله سأزوركم..

- نصيبك من تورتة عيد ميلادي بانتظارك.

- عقبال مائة وعشرين سنة يا حبيبتي.

وضع سماعة التليفون وقال في أسى:

- يا اه، كيف نسيت عيد ميلاد نورا؟

- يعرفون أنك مشغول وليس لدينا أولاد فلماذا ندعى لأعياد الميلاد؟

- ابنة أخي مثل ابنتي يا سعاد ولها أن تتعشم..

- طيب، خذ هدية واذهب لها غدًا.

- ولماذا لا تأتين معي؟

- قل لهم إنني مشغولة.

- نعم، نعم، مشغولة جدًّا؟

قالها متهكمًا ثم استطرد بنبرة أسى:

- لو أنك وافقت على أن نتبنى طفلًا ونربيه؟

- الإسلام يحرم التبني: ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله.. والإسلام يحض على كفالة اليتيم وليس تبنيه.

- الضرورات تبيح المحظورات والكفالة لم تشعرني بالتواصل، فالطفل الذي يعيش معي أربعًا وعشرين ساعة ويتعلم مني كل شيء يصبح امتدادًا لي وأحقق فيه رسالتي في الحياة.

- حاسب ربنا، قل له لماذا جعلت زوجتي عاقرًا؟

- خلاص يا سعاد.. كفى.

أجهشت بالبكاء وأخذت تضرب على المائدة بكفيها بطريقة هستيرية وتصرخ:

- عرضت نفسي على كل الأطباء وتحملت آلام الكثير من العمليات الجراحية ومنغصات العلاج والأدوية، كل هذا لم يشفع لي عندك، فماذا أفعل ألا تؤمن بأن هذه هي إرادة الله؟

- لم أقل هذا.. اهدئي أرجوك.

وقـام يربت عليهـا ويحاول تهدئتهـا دون جدوى، جـرت إلى غرفة النوم وظلـت تبكي وتندب حظها التعس وهـو يعتذر لها ويطيب خاطرها ويربت عليها في حنو إلى أن استكانت ونامت.

في حديقـة النادي تعالت صيحات وضحكات الأطفال وهو يتوسـطهم وقـد ربطوا منديلًا حـول عينيه، وأخذ يهيم ويجري بينهم محاولًا أن يمسـك الكـرة التـي يتقاذفونهـا بسرعـة مـع صيحـات عاليـة وضحـكات مجلجلـة معلنـة انتصارهـم عليه وقدرتهم عـلى اقتناص الكرة سريعًا قبـل أن يلتقطها أو يسـبقهم إليها، ورغم أنه شـعر بالتعب وأخذ يلهث إلا أنه يحس بسـعادة غامـرة ويناديهـم متحديًا بأنه سيخطف الكرة، لكـن دون جدوى، ففي كل مـرة، ينجح الأطفـال في اللحاق بالكـرة والتقاطها مع صيحـات الانتصار، وهو بينهم يشعر بمنتهى السعادة.

وفجـأة صحـا مـن نومـه وفتـح عينيـه في عتمـة الغرفـة لـيرى في ضـوء الأباجـورة الخافـت أنه يتمدد عـلى السرير وبجانبه زوجته الدكتورة سـعاد، تغـط في نوم عميق وتصدر من فمها صوت شـخير مزعـج، فكر أن يوقظها لتعتـدل في نومتها ولكنه تذكر أنها نامت باكية فآثر أن يتركها، ثم وضع فوق رأسـه وسـادة صغيرة وحاول أن ينام، لكن تفاصيل الحلـم ارتدت إلى عقله وأشرقت مخيلته بنور الأمل الذي اسـتمر يراوده سنوات طويلة ولما استعصى وأصبح أملًا مستحيلًا كان يهرب منه بشتى السبل، لكنه يعاوده الليلة بإلحاح شديد، ربما بسبب مكالمة نورا ابنة أخيه التي يحرص دائمًا أن يقدم لها هدية في عيد ميلادها، تزاحمت في عقله أفكار شـتى، وملأه شـعور بالأسى والحرمان

وتملكتـه الرغبـة الجامحة أن يخوض أو يجرب عاطفة الأبـوة، عاطفة أن يكون له امتداد سواء ابن أو بنت، يودع فيه أو فيها أفضل ما يكتسبه من هذه الحياة من تجارب ومشـاعر ومعارف وثروة وصفات يعتز بها، فهو يدرك أن الشرع يعطيه كل الحق في الزواج مرة أخرى وأنه لو قرر أن يسـتخدم حقه الشرعي فلـن يعارضـه أحد لكنه يخشـى أن يـؤدي تمتعه بهذا الحـق إلى تحطيم شريكة حياتـه التـي تتمدد بجانبه في السرير الآن، يدرك جيـدًا أنها تحبه وكم تعذبت لعـدم قدرتها عـلى منحه الطفل الذي يـمارس معه عاطفة الأبـوة، مرت على زواجهما عشر سـنوات كاملة، قطعا خلالها رحلـة الأمل في الإنجاب، كثيرًا مـا ركضا معًـا وراء أمل كاذب، وفي كل مرة يحـدث إجهاض في وقت حرج وتضيع جهود الأطباء ويتعجبون ثم يرددون بعض كلمات الأسى:

- لم يحن الوقت بعد، إنه النصيب..

ولـما اقتربت هي من الخامسـة والثلاثين وجاوز هـو الأربعين من عمره، قـررا دون اتفاق واضـح ومعلن أن يتوقفا عن المحاولة وأن يغلقا بينهما وبين هذا الأمل المسـتحيل كل أبواب المعاناة والعذاب ويلوذا بالنسيان ويقنعا من الحيـاة بأعبائها وهمومها، لعل تحمل تلك الأعبـاء والنجاح في التغلب عليها يمنحهـما العـزاء والسـلوى ويعوضهما عـن العزيـز الغالي الـذي حرما منه: الأولاد، فهـا هو يرتقي منصبًـا رفيعًا ويتجاوز رفاقه من المهندسـين ليصبح أصغـر رئيـس مجلـس إدارة لشركة مـن أهـم شركات البرمجيـات في الشرق الأوسط.

أما هي فواصلت نجاحها وتفوقها الجامعي حتى أصبحت أستاذة جامعية لها دراسـات وأبحاث فريدة ومتميزة، فكيف له بعد هذا المشوار أن يصدمها

أو يفاجئهـا بقرار صعب هكذا؟ وهربا من تلك الأفكار المتزاحمة، شـد عليه الغطاء وقرأ المعوذتين في سره واستسلم لنوم عميق.

لمحتـه يدخل مـن باب الشـقة، فصرخت نـورا وجرت إليـه كالصاروخ ودلفت من بين أبيها وأمها صائحة:

- عمو حبيبي، عمو حبيبي، عمو.

- أنت حبيبة قلب عمو يا نورا يا أحلى نورا في الدنيا.

أخذها في حضنه وقبلها باشتياق وحب حقيقي ثم قدم لها الهدية فتأملتها ببراءة طفلة شقية:

- أهي عروسة أم روبوت؟

- أنتِ ماذا تريدين؟

- عروسة.

- هي فعلًا عروسة لكنها تمشي وترقص وتغني.

- ااايه.

انفجـرت صيحتهـا بالفرحـة وفتحت العلبـة لتخرج العروسـة وتبدأ في تشـغيلها لترقص وتغني وتصفق لها وهي تتحرك وتغني فوق مائدة الطعام، وبينما دخلت أمها إلى المطبخ لتعد مشروبًا تقدمه لشـقيق زوجها، همس أحمد في أذن أخيه:

- عندي موضوع أريد أن أحدثك فيه على انفراد.

- لا بأس، تفضل هنا.

فتـح محسـن باب غرفـة الصالـون، فدخل أحمد ثـم تبعه شـقيقه الأصغر وأغلق الباب ليجلس قبالته:

- خيرًا؟

- محسن، لقد تجاوز عمري الأربعين عامًا وأريد أن يكون لي ولد.

- هذا حقك يا أخي، لكن ماذا ستفعل مع الدكتورة سعاد؟

- ستبقى زوجتي ولن أظلمها.

- وإن أبت كرامتها أن يكون لها ضرة؟

- لكن العيب منها ولا بد لها أن تراعي ذلك وتعذرني.

- يجـب أن تمهـد لهـا حتـى لا تصدمهـا أم أنـك تتوقـع رد فعلهـا ومـاذا سيكون؟

- إن كانـت تحبنـي حقًّا فسـتقدر الموقف ولن ترفض أن أسـعى لتحقيق حلمي الذي هو حق أصيل لي كبشر، كإنسـان، كرجل تحملتها عشر سنوات وعاملتها أحسن وأشرف معاملة.

- لكنها قد ترى أنك الآن تهدم المعبد؟

- محسن، لقد اتخذت قراري ولن أتراجع.

- أهي قصة حب؟

- حتى الآن من طرفي أنا.

- إذن تأكد أولًا من الطرف الآخر قبل أن تفجر قنبلة في بيتك.

- لكنه حقي الشرعي يا أخي.

- أعـرف، لكـن زوجتـك معتدة بنفسـها جـدًّا ولن يكـون الأمـر هينًا، أنصحك أن تتمهل وتفكر جيدًا.

سـمع خطوات زوجته فأومأ لأخيه بغلق هذا الموضوع، ودخلت حاملة صينيـة عليها أكواب العصـير وقطع الجاتوه، وضعتهـا أمامهما وبدأت تقدم لكل منهما وهي تسأل:

- لماذا لم تحضر الدكتورة سعاد معك يا باشمهندس؟

- عندهـا مناقشـة رسـالة جامعيـة اليـوم وأنا جئـت من الشركـة إلى هنا مباشرة.

- إذن سأعد لك طعامًا.

- لا، شكرًا، أكلت في الشركة.

- طيب هذه قطعة من تورتة عيد ميلاد نورا.

- كل سنة وهي طيبة وعقبال مائة سنة.

لم يسـترح لكلام أخيه محسـن، فخـرج متوجهًا إلى منزلهـم القديم في حي الزمالك، فاسـتقبلته أمـه العجوز بقلب امرأة عركت الحيـاة وأجادت قراءة ملامـح وجوه البشر خاصة لـو كان ابنها البكري وفلـذة كبدها، رمقته وهو جالس أمامها كطفل يفرك أصابعه مرتبكًا، مترددًا، حائرًا، يفكر فيما سـيقول وسألته:

- ما لك يا أحمد؟

- أبدًا يا ماما، أنا بخير، الحمد لله.

- لا يا أحمد، أنت مهموم وبالك مشغول، لماذا لم تأت الدكتورة معك؟

– مشغولة.

– أم أنها ليست على ما يرام معك؟

– بل أنا الذي لست على ما يرام معها.

– لماذا؟

– أحلم بالولد والذرية وأخشى أن يكون الوقت قد فات.

– لا يا حبيبي، أنت في عز شبابك وهذا حقك الشرعي ربنا أعطاك رخصة: «مثنى وثلاث ورباع».

– لكنه أوصانا بالعدل وحذرنا: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾.

– هذا ليس معناه أن الله قد أعطى الرجال رخصة ثم سحبها منهم، لا.. هذا إقرار من المولى الذي خلقنا ويعلم ما تخفي صدورنا بأن الرجال في مسألة العاطفة وشئون القلب بالذات لن يعدلوا، فالمشاعر والعواطف من طبيعتها الحنو والميل لجهة دون غيرها وهذا يعوق القسمة بالعدل في العواطف لكن ما دون ذلك من أمور مادية فيمكنك أن تعدل بين الزوجتين.

– أفهم من ذلك أنك تشجعينني على الزواج؟

– ولا تتردد، كفاك ما ضيعته من أحلى سنوات عمرك.

– وسعاد؟

– ستبقى زوجتك الأولى معززة مكرمة.

– وإن رفضت؟

- تكـون ظالمـة لـك لأنهـا تعلـم أن العيب منهـا وأنها التـي حرمتك من الإنجاب.

- كل شيء بإرادة الله يا ماما.

- والله أعطاك رخصة وقال لك تزوج مثنى وثلاث ورباع.

■■■

حتى زيارته لأمه، رغم تشـجيعها له، لم تـرس به على بر الأمان، وما زال يعاني الحيرة والتردد، ويتوجس شرًّا كثيرًا من لحظة المواجهة مع زوجته عندما يبلغهـا برغبته في الزواج، في قرارة نفسـه يدرك صعوبـة هذه اللحظة، مع أنه يتمناها أن تأتي سريعًا وأن يجتازها إلى ما بعدها من آفاق رحبة، لكنها لن تأتي إلا بعد أن تحسـم بيلسـان موقفهـا وترد عليه بالموافقة، حينئـذ فقط لن يتردد وقـد تتولد فيه طاقة جبارة تجعله لا يخاف العاصفة ويقف أمام سـعاد سبعًا جسورًا يرد ثورتها بإعصار رجولي جامح يأخذ في طريقه الأخضر واليابس، كل هـذه الأفـكار لازمته وظلـت تراوده وتشـغل فكره حتى بعـد أن تناول طعام العشاء مع سعاد ثم تمدد أمام شاشة التليفزيون العريضة.

جـاءت حاملة صينية عليها طبقا الفاكهة، جلسـت بالقرب منه وتناولت الريموت قائلة:

- عن إذنك، دعني أر شيئًا في تلك القناة.

وبعـد تقليبهـا السريـع في القنوات اسـتقرت عـلى فيلم لا تـزال لوحات البداية تعلن أسماء الأبطال وصاحت بفرح:

- الله، فيلم «تايتنك» هذه أول مرة أراه من بدايته.. سيعجبك جدًّا.

- لكني شاهدته عدة مرات؟

- لا بأس، شاهده معي مرة أخرى.

- والمباراة التي كنت أتابعها.

- الفيلم أهم، وإن كان لا بد من المباراة فادخل وشاهدها على التليفزيون الصغير بغرفة النوم.

حمل طبق الفاكهة ودخل فتمدد على السرير وأخذ يتابع المباراة على الشاشة الصغيرة، لكنه سرعان ما انشغل عنها بأفكاره الخاصة وإحساسه بالغبن من تسلط وأنانية شريكة حياته وتذكر أنها كثيرًا ما تفعل ذلك، فهي لا تتركه يهنأ بمشاهدة المباريات إلا إن كانت مشغولة بالبحث والقراءة، أما إذا فرغت فلا بد أن تطغى وتتحكم فتفرض عليه أن يشاهد ما تريد هي أن تشاهده، وظلت الأفكار السوداوية تلاحقه حتى تساءل:

- ترى أتستحق امرأة أنانية كهذه أن أضحي بعمري كله معها وهي تحرمني من عاطفة الأبوة؟

تذكر نصيحة أخيه محسن وهو يرجوه:

- أنصحك أن تتمهل وتفكر جيدًا.

ظل صوت أخيه يتردد في عقله ويمتزج بصوت أمه: «الله أعطاك رخصة الزواج مثنى وثلاث ورباع» واختلط الصوتان في رأسه حتى شعر بالصداع، فمال برأسه على الوسادة واستسلم للنوم.

بعد نهاية الفيلم نادته سعاد فلم يرد وظنته غاضبًا منها لأنها أصرت على مشاهدة الفيلم، قامت إليه لتطيب خاطره وتصالحه ودخلت الغرفة فوجدته نائمًا وبجانبه طبق الفاكهة على الكومدينو كما هو، نادته:

- أحمد، أحمد..

- هه.. ماذا؟

- سبحان الله، كيف نمت ولم تشاهد المباراة؟

- أشعر بالتعب والإرهاق.

- يا رجل، قم وبطل كسل.. هيا، اغسل وجهك لتفيق وتعال سأتزين وأنتظرك بقميص النوم.

- لا.. ليس لي مزاج هذه الليلة.

- لا يا ميدو، لا تكن سخيفًا، ليتك رأيت الفيلم معي.

- أعرفه، عن إذنك سأغسل أسناني وأنام.

تذكر أنه لم يصل العشاء، فغسل أسنانه بالفرشاة وتوضأ وركز كل تفكيره في أداء الصلاة فشعر بالطمأنينة وهدأت نفسه، لكنه دخل غرفة النوم فوجد امرأته التي كانت تدعوه للمرح منذ لحظات قد استغرقت في نوم عميق، وصوت شخيرها يعلو بطريقة مزعجة، فرجع إلى غرفة المعيشة وجلس يتصفح ما لم يقرأه من الصحف اليومية.

■■■

صباح يوم الجمعة، كل شيء يمضي بإيقاع هادئ، بعد تناول الإفطار، تركته يتصفح الجريدة وانشغلت بترتيب البيت، لكنه فاجأها بارتداء الترينج سوت، سألته بدهشة:

- أحمد.. إلى أين ذاهب؟!

- أنا ومجموعة من أصدقائي القدامى اتفقنا أن نلتقي ونلعب مباراة تنس بالنادي الأهلي.

- لماذا لم تخبرني لكي آت معك؟

- هذه صحبة رجالي ولا تناسبك.

- أهكذا؟

- ثم إنني أعرف أنك تشغلين نفسك يوم الجمعة بالغسيل والمسح والتنظيف ولا أريد أن أعطلك.

- براحتك يا زوجي العزيز.

- مع السلامة.

- وهل ستأتي على الغداء؟

- حسب الظروف، عمومًا سأتصل بك.

- طيب مع السلامة.

قالتها بتنهيدة وزفرة ساخنة وهي ترمقه يخرج وقد علق في كتفه حقيبة رياضية يبرز منها مضرب التنس.

انطلق بسيارته ولكنه لم يتجه شرقًا نحو النادي الأهلي كما أخبرها، بل استدار واتجه غربًا نحو مصر الجديدة التي وصلها بعد قرابة نصف الساعة وفي جراج «نادي الشمس» توقفت سيارته وضغط على زر الموبايل فردت عليه بيلسان:

- حمدًا لله على السلامة، ابق عند البوابة وسوف أحضر إليك بعد دقيقة واحدة.

هي الأخرى كانت ترتدي ملابس رياضية تجعلها أصغر من سنها وتبدو كفتاة جامعية لم تدخل عش الزوجية بعد، أقبلت عليه بخطًى سريعة وابتسامتها تضيء وجهها، صافحته بحرارة ودعته للدخول ثم لوحت بيدها لحارس البوابة الذي حنى رأسه ورفع يده لها بالتحية قائلًا:

- تفضل يا بك، أهلًا وسهلًا.

تأملها أحمد بإعجاب وانبهار شديدين ثم استوقفها في طرقة مدخل النادي قائلًا:

- بيلسان، انتظري، أرجوك، كلميني قليلًا عن حماك وحماتك، أريد أن أتهيأ للحديث معهما.

- إنهما أبسط من البساطة، رجل وامرأة في منتهى التفتح والذكاء الاجتماعي، ستعجب بهما.

- المهم أن يعجبا بي ويوافقا عليَّ.

- لا، يا أستاذ، المهم أن يعجب بك أمجد وروان فهما الأهم بالنسبة لي.

- لقد أحضرت لهما بعض الهدايا و...

- لا، أمجد وروان لا تغريهما الهدايا.

- ظننت الهدايا ستلطف الجو.

- ربما، لكنهما أذكى مما تظن.

- أتريدين إحباطي من الآن؟

- بالعكس، أريدك أن تنتبه إلى مستوى تفكيرهما المرتفع وتقدر فيهما ذلك.

- لكنك في هذه الملابس الرياضية أكثر من رائعة.

- حذارِ من كلمة غزل واحدة أمامهم، إني أحذرك.

- بيلسان، ارحميني وسهلي مهمتي قدر الإمكان.

- والله هـذا يتوقف على نيتك وما تضمـره، فإن كان خيرًا فزت وإن كان غير ذلك فلا تلومن إلا نفسك.

- والله لا أُكِنُّ لك ولأولادك إلا كل الخير، أنا أحبك بصدق يا بيلسان.

- هيا بنا.

أحس بشيء من التوتر وتسارعت دقات قلبه وهو يمشي إلى جانبها حتى وصلا إلى شمسية في ركـن مـن حديقة النـادي، تحتها منضـدة كبيرة يجلس حولهـا الطفـلان والعجـوزان وعيـون الجميع مسـلطة نحو القـادم بصحبة بيلسـان وتبدو عليه أمارات الثراء والشـباب والوسامة.. قرر أحمد أن ينسى تمامًا وجود بيلسـان إلى جانبه وأن يتعامل مع الجميع بتلقائية ومودة فابتسـم وهي تتجه به إليهم ثم تشير إليه:

- أحمد بك رئيسي في العمل وصديق الأسرة.

قـام الرجـل العجوز فصافحه باحـترام بينما المرأة العجـوز مدت له يدها وهي جالسة فصافحته:

- اعذرني يا بني.

- براحتك يا هانم.

وقـام أمجد وأختـه روان فصافحهما أحمد بحماس ووضـع قبلتين على خد كل منهما، أشار الرجل العجوز بيده فجلس أحمد إلى جانبه:

- ابنتنا بيلسان تذكرك بكل خير وهذه مناسبة لنشكرك على شهامتك معها.

- بالعكس، أنا لم أفعل إلا الواجب.

- روان.. انظري، نفس المضرب الذي يستخدمه رافائيل نادال.

- لا، إنه يشبه مضرب ماريا شارابوفا.

- أتحبان التنس إلى هذه الدرجة؟

- إنها رياضتها المفضلة.

- إذن سنشكل فريقًا.

- أنا سألعب مع مامي.

قالتها روان بمرح وهي تميل نحو أمها فابتسم أحمد وأشار إلى أمجد قائلًا:

- وأنا يسعدني أن ألعب مع كابتن أمجد.

- انتظروا حتى نرحب بضيفنا ونقدم له واجب الضيافة.

وأشارت بيدها فأتى الجرسون:

- تحت أمرك يا بيلسان هانم.

- بابا، ماما.. ماذا تشربان؟ وحضرتك يا أحمد بك؟

طلب الجميع قهوة ما عدا الطفلين فطلبا العصير، وعندما رجع الجرسون بالقهوة، أخرجت بيلسان من حقيبتها قطعة من الشيكولاتة وقدمتها له:

- أحمد بك، أتحب الشيكولاتة مع القهوة؟

- أشكرك.

أخـذ يتبادل كلمات المجاملة والترحيب مـع العجوزين ويفكر في الكيفية التي نجحت بها بيلسان في أن تمد أواصر المحبة بينها وبين حماها وحماتها هكذا بعد وفاة ابنهما، بل إنه لاحظ أيضًا خلال جلسته معهم أنها مشهورة في النادي وبعض الرواد من الرجال والسـيدات يعرفونها جيدًا ويحيونها عندما يمرون قريبًـا منها، أخذ يفكر: «أهو سـحر جمالها الذي يجـب الناس فيها هكذا؟ أم هي طبيعة شـخصيتها الاجتماعية الودود المعطاءة، إنها تشيع جوًّا من البهجة والسرور فيمن حولها وتعامل الجميع بتواضع واحترام ومودة».

لم يمض وقت كثير حتى شـعر أنه جـزء من هذه الأسرة وأنه يحبهم جميعًا ويتمنـى أن يقـضي بقية عمره معهـم، وعندما فرغ من فنجـان القهوة تناولته بيلسان وأخذت ترج ما بقي فيه من رواسب ثم قلبته في الطبق قائلة:

- ماما تجيد قراءة الفنجان.. دعها تقرأ فنجانك.

- لا يا بيلسان.. لا داعي للإحراج.

قالتها العجوز فرد عليها أحمد بحماس:

- أبدًا.. يسعدني جدًّا أن تقرئي فنجاني.

- بشرط.. إن وجدت فيه شيئًا غير سار فلن أقول.

- موافق.

تناولـت العجوز فنجان أحمد وأخذت تلفه بين أصابعها، تحدق إلى قاعه، تحاول أن تفك شـفرة الرسـوم والأشـكال العشـوائية التي رسمتها رواسب القهوة عـلى جوانب الفنجان، أحيانًا كانت ترفـع عينيها عن الفنجان وتنظر إلى وجه أحمد بدهشة واستغراب، ثم تتأمل الفنجان وتصدر همهمة أو كلمات سريعة غير مفهومة فعاجلتها بيلسان:

- ماما.. هيا، قولي، ماذا بالفنجان؟ أحمد بك سيشعر بالقلق.

- بل أشعر فعلًا أنني في امتحان صعب.

- انتبه.. انتبه يا بني!

قالتها العجوز وهي ترمق أحمد بنظرة عطف واستطردت:

- ما أراه في فنجانك يجعلني أقول لك انتبه، فطريقك طويل ومليء بالعقبات والصعاب، صحيح أنك قطعت شوطًا كبيرًا منه ولكنك تهفو نحو قمة تريد الوصول إليها ولكن انتبه فبينك وبين هذه القمة حرب ستخوضها وتنجو منها.

- كلامك يزيد قلقي، أرجو أن توضحي.

وهنا تدخل الجد وقال مطمئنًا:

- هذه دعابة يا أحمد بك، كذب المنجمون ولو صدقوا.

وأمنت العجوز على كلام زوجها:

- نعم، فالغيب يعلمه الله وحده وقراءة الفنجان مادة للدعابة ليس إلا..

- لكن كلامك لمس وترًا حساسًا في أعماقي وجعلني أشعر بالخوف والقلق.

- من منا حياته خالية من الصعاب، من منا حقق كل أهدافه بالحياة، من منا لا تمثل حياته طريقًا طويلًا يمشي فيه ويريد أن يقطعه رغم كل ما يعترضه من عقبات ومصاعب.

- إذن لم تقرئي في الفنجان شيئًا خطيرًا؟

- أنت طيب فعلًا يا أستاذ أحمد، قلت لك كذب المنجمون ولو صدقوا.

- أنكل.. هل تسمح لي بمضرب التنس؟

- طبعًا يا أمجد.. أتريد أن تلعب؟

فتح أحمد حقيبته وأخرج منها مضرب التنس والكرة ثم قدم الهدية التي أحضرها لأمجد وكذلك أخته روان فشكراه على الهدية ووضعاها جانبًا دون أن يفقد أي منهما إعجابه بمضرب التنس فأخذ يتحسسه ويتأمله بإعجاب وفرح مما دعا أحمد أن يتودد إليهما:

- هيا نشكل فريقين ونلعب.

كان ملعب التنس قريبًا، فتوجهوا إليه: أمجد وروان وخلفهما أحمد وبيلسان، حيث انضم أمجد إلى أحمد وقاما باللعب ضد بيلسان وروان وحينما عادوا وهم يلهثون دعاهم العجوز لشرب العصير وبعد قليل ارتفع صوت المؤذن من مسجد النادي، فوقف قائلًا:

- هيا بنا إلى الصلاة.

تأبط أحمد ذراع العجوز، ومشى معه وبجانبه الطفل أمجد، فبادره العجوز:

- تشرفنا بمعرفتك يا أستاذ أحمد.

- الشرف لي أنا يا عمي وأنا فعلًا سعيد بمعرفة رجل عظيم من رجال التربية والتعليم مثلك.

- لقد تدرجت في المناصب حتى خرجت إلى التقاعد بدرجة وكيل وزارة.. ايه حياتي كلها كفاح.

- واضح أن حضرتك وكذلك طنط لستما مجرد حما وحماة بالنسبة لمدام بيلسان!

- لم ننجب إلا «حاتم» وأخته نادية.. نادية كانت الأكبر ولما تزوجت سافرت مع زوجها إلى كندا وأعجبتهما الحياة فاستوطنا في «أوتاوا» ولا يأتيان لزيارتنا إلا مرة كل بضعة أعوام، أما حاتم فقد سافر إلى العراق ورجع بهذه الجوهرة «بيلسان» التي عوضتنا عن غياب ابنتنا، وبعد وفاة حاتم أصبحت لنا الابن والابنة والقلب الحنون، إنها تطمئن علينا قبل طفليها وترعى شئوننا وتحرص على مرضاة الله فينا، والله يا ولدي لو كانت ابنتنا تعيش معنا ما كانت أحن علينا من الرائعة «بيلسان».

- بارك الله فيها.

وصلوا إلى باب المسجد وفوجئ أحمد بأن الطفل أمجد ينحني أمام جده ويساعده في خلع حذائه ثم يحمله عنه ويدخل فيضعه في الخانة المخصصة بأرفف الأحذية، نظر إلى الطفل بإعجاب شديد وأدرك أن بيلسان مربية عظيمة، جلسوا يستمعون إلى خطيب الجمعة، وكان بالمسجد بعض الأطفال في مثل سن أمجد، لكنهم لم يهتموا بالإنصات للخطبة مثل أمجد، فبعضهم يتحرك أو يشاكس طفلًا بجانبه أو ينشغل بالهمس والحديث معه، أما أمجد فكان ينتبه جيدًا لما يقوله الشيخ، وحتى عندما قاموا للصلاة لم يخطئ في أية حركة، وكان أحمد يلاحظه بطرف عينه اليسرى وحدثته نفسه أن الطفل أمجد يخشع في صلاته أكثر منه، فشعر بالحرج والغيرة ومزيد من الإعجاب.

لما رجعوا كان الجرسون يرص على المائدة أطباق الكباب والكفتة والسلاطة الخضراء والخبز الطازج، ثم التفت إليها:

- أية خدمة أخرى يا مدام بيلسان؟

- أشكرك.

قالتها ويدها تدس في يد الجرسون عملة ورقية، ثم تناولت حقيبة أخرجت منها قدرًا من النوع الذي يحفظ حرارة الطعام وترموس كبيرًا وبعض الأطباق ثم بدأت تصب من الترموس نوعًا من الشوربة الخضراء الساخنة يتصاعد منها البخار برائحة شهية، وفتحت القدر وأخذت توزع أرز «البرياني» الساخن على الأطباق وقالت:

- أحمد بك، هذا هو «البرياني» بالطريقة العراقية، «صنعة يديَّ وحياة عينيَّ».

- سلمت يداك.

- وهذه شوربة السبانخ مغذية جدًّا، أرجو أن يعجبك غداؤنا اليوم.

- هذا أكثر من رائع وأشكرك جدًّا على هذا الجو العائلي المفعم بالمحبة والألفة.

- تفضل، تفضلوا جميعًا بألف هنا.

أكل أحمد بمتعة حقيقية، أكل كما لم يأكل من قبل وكان سعيدًا ويشعر بالود لهم جميعًا كأنه جزء من هذه العائلة، لقد تمنى من أعماقه لو أنه لم يرجع إلى بيته وحياته السابقة، وأن ينغمس في هذه الأسرة ويقضي معها ما تبقى من عمره، فدعا الله بقلبه أن يوفقه في الزواج من هذه المرأة المدهشة، وبعد الطعام اندمج في الحديث مع الرجل بينما استأذنت بيلسان لتأخذ حماتها للتمشية حول التراك حسب وصية الطبيب الذي يعالجها من الروماتيزم،

أمـا روان وأمجـد فانطلقا مع بعض الأطفال إلى ركن الملاهي حيث الزلاقات والمراجيح ولعبة العربات المتصادمة.

مـضى الوقت سريعًا، وتذكر أحمد أنه نـسي أن يتصل بزوجته ويخبرها أنه لـن يحضر على الغداء، فتعلـل بأنه ذاهب إلى الحمام وابتعد، ثم اتصل بسـعاد التي أمطرته بعاصفة من كلمات التذمر واللوم الشديد، وعبثًا حاول أن يعتذر أو يهدئها ولكنها أفرغت شحنة غضبها ثم أغلقت الخط.

خـشي إن تأخـر عليها أكثر من ذلك أن تذهـب إلى النادي الأهلي فتعرف أنه لم يكن هناك أو تتصل به مرة أخرى وهو جالس بينهم ويضطر للرد عليها فيظهـر لهـم ارتباكه أو ضعف موقفه مـع زوجته، لذلك قـرر أن يرحل الآن قبل حدوث ما لا تحمد عقباه، رجع فشكرهم على هذا الوقت السعيد الذي قضاه معهم، صافحهم جميعًا وحمل حقيبته فمشـت معه بيلسان لكي توصله إلى بوابة النادي، وفي الطريق أراد أن يجس نبضها فقال:

- أرجو أن أحوز القبول.

- لا تتعجل هذه مجرد زيارة تعارف.

- ليتك تحدثينهم الليلة عن رغبتي في الزواج بك.

- لا.. الأمر ليس بهذه السهولة.

توقف والتفت إليها بنظرة مفعمة بالعاطفة والرغبة الصادقة:

- بيلسـان، صدقيني أحبك بصدق ومسـتعد لتأمين مستقبلك ومستقبل أولادك بالطريقة التي تفضلينها.

- أحمد بك، أنا أقدر مشـاعرك جدًّا، ولعلمك أنا أصلًا من عائلة غنية في العراق، فوالدي رحمة الله عليه كان من أكبر التجار في سـوق «الشـورجة» في بغداد وترك لنا أملاكًا وعقارات كثيرة.

- اعتبريني من الآن أخًا لك وأبًا يرعى طفليك ويساعدك في...

- المشـكلة ليست في المادة أو الإمكانيات، هناك أشياء أخرى ربما تأتي في المرتبة الأولى، أستاذ أحمد لا تتعجل فأنت لا تعرفني جيدًا.

- لماذا تريدين أن تخيفيني منك؟

- بالعكس، أحاول ألا أصدمك، فأنت لا تعرف كل شيء عني.

- كأنك تريدين أن تقولي: احذرني، فأنا امرأة خطيرة.

- أبـدًا والله، لكنـي في هذه اللحظـة التي أحدثك فيها أشـعر بأنني امرأة مقيدة بأعباء وهموم كثيرة تمنعني من اتخاذ أي قرار، أنا مرتبكة، صدقني.

- بيلسان، رغم كل غموضك فأنا أحبك، وأرجو أن تقدري هذا.

- وأنا سعيدة جدًّا بحبك لي، فهذا من رضا الله عز وجل.

- ونعمَ بالله.

- أحمـد، لا تنتظر مني أكثر من ذلك، اذهب الآن أرجوك، اذهب قبل أن أضعف وتغلبني دموعي.

قالتها واستدارت ملوحة له بيدها ثم أسرعت الخطى وهي تمسح دموعها بسرعـة، بينما اتجه أحمد نحو بوابة النادي ولديه شـعور قـوي بأنها تبادله حبًّا بحب وأنها تعاني مثله من لوعة الحب، فمضى مطمئنًّا تملؤه السعادة.

■■■

كان يعد الساعات وينتظر على أحر من الجمر أن يسمع منها كلمة القبول، تـردد أكثر من مرة، بعـد أن يمد يده للتليفون ليطلبهـا، يتراجع خوفًا من أن تفـسر لهفتـه بأنه عاد إلى المراهقة أو أنه رجل صاحب نزوة، حاول أن يشـغل نفسـه بالمهـم وغير المهم من الأعـمال، وصبر حتى انتصـف النهار، خاف أن يمـضي الوقت وتنتهي مـن عملها فتخرج من الشركـة دون أن يعرف رأيها، أخيرًا حزم أمره وطلبها على الموبايل:

- بيلسان، كيف حالك؟

- الحمد لله.

- أستسمحك أن تشرفيني بالمكتب لأتحدث معك.

- حاضر، سأنهي الملف الذي أعمل به ثم أجيء إليك، مع السلامة.

ظـل يفـرك أصابعـه في عصبية ويتحرك أمـام المكتب في قلق حتى سـمع صوتهـا تتحدث إلى السـكرتير وتطلب الدخول، جلـس إلى مكتبه ودخلت فقام يسـتقبلها بترحاب شديد محاولًا أن يقرأ في ملامحها علامات القبول، ثم سألها بمودة:

- كيف حالك؟

- الحمد لله.

- والأولاد والجد والجدة؟

- الجميع بخير والحمد لله.

- هل أبلغتهم رغبتي في الزواج منك؟

- لا.. منعني الحياء.

- بيلسان، هذا حقك فأنت زهرة في ريعان الشباب.

- ولكنـي في نفـس الوقـت أم وأرملة، أم حريصة عـلى تربية طفليها على أحسن وجه، وأرملة مخلصة لذكرى زوجها وأمينة على رعاية والديه.

- أقسم بالله إنني سأكون عونًا لك على كل هذا، سوف أساعدك.

- أنـا أصدقـك، لكـن لم يحـن الوقت بعد، فكـرت كثـيرًا في أن أبوح لهم بمشاعري ورغبتي في قبولك زوجًا لي، ولكن الحياء منعني فلم أقدر.

- وإلى متى؟

- لا أدري، مـا زلـت مشـدودة للماضي ولا أقدر على الفكاك منه، حاتم ما زال حيًّا في أعماقي.

- لكنك قلت حالًا إن لك رغبة في قبولي زوجًا لك؟

- ألسـت امرأة ولها مشاعر؟ بلى، للحظات فكرت ورأيتك زوجًا مناسبًا وأسـتطيع أن أحتمـي بك من غـدر الزمان، ولكـن ليس كل مـا يتمناه المرء يدركه.

- لماذا؟ حياتنا نصنعها بأيدينا.

- لا.. حياتنـا نصنعها بالتوافق والوئام مـع الأهل والمحبين وشركائنا في هذه الحياة.

- إذن، دعيني أتحدث إليهم.

- مستحيل.

- لماذا؟

- سيفهمون الأمر بشكل خاطئ ويتعقد الموقف.

– وما العمل؟

– الصبر، نعم لا داعي للعجلة.

– بيلسان، أرجو أن تدركي أنني تجاوزت الأربعين وأعتقد أنك تجاوزت الثلاثين فلم التلكؤ وتضييع الوقت وكل حلمي وأملي في الحياة أن يهبني الله طفلًا منك أنت.. أنت بالذات يا بيلسان، لأنك الوحيدة التي انفتح لها قلبي، أنت الوحيدة من بين كل النساء اللائي تعاملت معهن أو تعرفت إليهن التي أيقظت في عقلي حلم الأبوة وأضاءت مستقبلي بأمل كنت أظنه قد مات واندثر.

– مع كل تقديري لحلمك الرائع ومشاعرك النبيلة، أرجو المعذرة، فمثل هذه القرارات المصيرية تحتاج إلى صبر وإمعان وتأمل وتهيئة نفسية وأسرية.. أرجو أن تفهمني.

– اسمعي، أدعوك لتناول الغداء بأحد الفنادق الكبرى ونكمل حديثنا هناك.

– لا، للأسف، لا أستطيع.

– لماذا؟ لن نتأخر كثيرًا.

– وماذا أقول لطفليَّ؟ هل أكذب عليهما؟

– لا تكوني مثالية إلى هذه الدرجة.

– هذه ليست مثالية.. إنما هي مبادئ أربيهما عليها وإن تجاوزتها فلن يتمسكا بها ثم إنني اليوم ملتزمة بالذهاب مع حماتي إلى طبيب العظام ولا بد أن أفي بوعدي لها.

– أعرف طبيبًا ممتازًا كان يعالج أمي فهل أصحبكم إليه؟

- شكرًا، لو احتجنا إليه فسأخبرك.

- بيلسان، صدقيني، لقد أصبحت جزءًا من حياتي، ودون أن أدري وجدتك تشغلين تفكيري بالليل والنهار، أرجو أن تقدري مشاعري وتدركي قيمة حبي لك قبل فوات الأوان.

- أستاذ أحمد، إن كان وجودي بالشركة يسبب لك مشكلة فأنا على استعداد لتقديم استقالتي حالًا.

- لا، لا، أرجوك، يكفيني أن أراك وأبقى حيًّا على هذا الأمل حتى لو كان وهمًا، فهو أجمل وهم صادفته، لا تحرميني منه، أرجوك.

- أقسم بالله إنني أشعر بك وأقدر مشاعرك ولكننا لسنا أول من تقف الظروف عقبة في طريقهما، ولو قرأت عن عشاق الحب العذري فستجد في قصصهم العزاء والسلوى.

- لكنهم ماتوا منتحرين أو أصابهم الجنون.

- حاشاك، يحفظك الله من كل شر، لكن هؤلاء كان زمانهم غير هذا الزمان، فالمسافات كانت شاسعة والبعد يزيد الجفوة والمعاناة، أما اليوم فالأمر مختلف وإن لم ترني يمكنك أن تكلمني بالهاتف وتسمعني.

- دائمًا، أنت جاهزة الرد ولديك الحجة القوية، بيلسان من اليوم اعتبريني أخًا أكبر لك وهذه الشركة تفخر وتزداد شرفًا بك، إنها شركتك.

- أشكرك ويسعدني ويشرفني أن أكون أختًا لرجل محترم ومهذب مثلك.

صافحته وانصرفت، جلس يستعيد صوتها الحنون وكلماتها المعبرة الصادقة، دخل صلاح مدير مكتبه حاملًا بعض الملفات وقال:

- هذه المعاملات تحتاج إلى توقيع سعادتك.

- ضعها لأطلع عليها.

ترك صلاح الملفات على مكتبه وانصرف، نظر أحمد إلى شاشة الكمبيوتر، مد يده فأمسك الفأرة وفتح محرك البحث ثم كتب: «مصارع العشاق»، بدأ يقرأ ويتصفح قصص أشهر العشاق العرب، شعر بارتياح وأحس أنه أصبح ينتسب إلى هؤلاء المحبين الذين خلد التاريخ ذكراهم حتى لو كانوا مجانين أو أصابهم الشطط والأذى، لم يدر بمرور الوقت حتى دخل مدير مكتبه يسأله:

- هل وقعت هذه المعاملات يا أحمد بك؟

- لا يا صلاح، إنها تحتاج لمراجعة دقيقة وسوف أحملها معي إلى البيت.

- كما ترى.

انتبه إلى أن وقت الدوام قد انتهى، سمع حركة الموظفين وهم ينصرفون، قام إلى النافذة وقف خلفها ينظر إلى الشارع، بعد لحظات خرجت بيلسان، تأملها وهي تتجه إلى سيارتها ثم تركبها وتنطلق مبتعدة، قال في نفسه:

- اذهبي في أمن الله وحفظه.

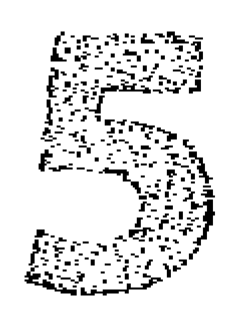
عاد إلى مكتبه ونظر في الشاشة، يقلب الصفحات متأملًا قصص الألم والمعاناة والعذاب الذي لاقاه هؤلاء العشاق من أبطال الحب العذري، لعله يستلهم من آلامهم الصبر والسلوى، ضغط زر الطابعة فأخذت الأوراق تنساب واحدة تلو الأخرى، بعد لحظات أمسك بين يديه نسخة ورقية من «مصارع العشاق» تأملها بارتياح كأنه يشعر أن هؤلاء سلفه وأجداده العظام

وأنه بشكل أو آخر ينتسب لهم، وقع بصره على العنوان فلم يعجبه، أمسك القلم وشطب العنوان ثم كتب فوقه بخط عريض: «النبلاء».

حفظ الأوراق باهتمام في حافظة فاخرة، ضم إليها الملفات والمعاملات المرصوصة فوق مكتبه، وضعها في حقيبته ثم حملها وخرج.

■■■

ذكريات ظنها ماتت لكنها هبت واقفة وملأت خياله حركة وبهجة، كان يقود سيارته بسرعة، وفي عقله مائة سؤال عما جرى لها وكيف نجت من أهوال القذف الصاروخي لبيت خالها الذي رآه بأم عينه وقد تحول إلى كتلة هائلة من النار والدخان وألسنة اللهب، أسئلة كثيرة طافت بخياله وهو متجه بسيارته إلى المطار بكل الشوق واللهفة.



وصل أحمد إلى المطار، ركن سيارته ونزل يتلفت ويبحث عنها كالمجنون، لم يعثر لها على أثر، تسرب إليه الشك في أنه كان يحلم وأن شوقه إليها جعل عقله الباطن يتخيل أنها عادت وتحدثت إليه، شعر بالإحباط ولكن نبرة صوتها في الهاتف ما زالت ترن في أذنه، كيف يكذب إحساسه بصوتها، قطع الشك باليقين ودخل يسأل موظف الاستعلامات:

- هل وصلت طائرة من بغداد؟

- نعم، منذ ساعتين.

- أكانت بين الركاب سيدة تدعى: بيلسان كمال عبد الواحد؟

قرأ الموظف في الأوراق التي أمامه ثم هز رأسه مؤكدًا:

- نعم، وصلت السيدة بيلسان.

- شكرًا.

عاود البحث عنها مرة أخرى داخل صالة الوصول وخارجها وفي الكافتيريا، ثم وقف يتلفت حائرًا أمام صالة الوصول، فجأة تذكر الهاتف، أخرجه واتصل بالرقم الذي تحدثت إليه منه، فرد عليه رجل أجش الصوت:

- آلو.

- لقد كلمتني سيدة من هذا الهاتف منذ ساعة تقريبًا.

- نعم، إني أراك، هل تبحث عنها؟

تلفت فرأى الجندي الواقف على بعد خطوات منه عند باب الصالة يومئ برأسه له، توجه إليه:

- أين ذهبت؟

- انتظرتك هنا لأكثر من نصف ساعة ثم يئست فركبت «تاكسي» وذهبت.

- شكرًا.

رجع إلى سيارته وقبل أن يحركها رن جرس الهاتف وكانت زوجته سعاد تسأله:

- أحمد ألن تأتي على الغداء؟

- سعاد، عندي لك خبر بمليون جنيه.

- هل تراجع الرئيس مرسي عن الإعلان الدستوري الذي قسم البلاد؟

- بيلسان لم تمت.

- وأين كانت كل هذه السنين؟

- كانت محبوسة.

- يا ااه مسكينة، تعذبت كثيرًا.

- لم أتصور أبدًا أنها ستنجو وتخرج حية من الدمار الذي حول البيت إلى أنقاض وركام وسط شعلة هائلة من اللهب والدخان.

- كتب الله لها عمرًا جديدًا لتفرح بطفليها.

- سأمر على البيت لتأتي معي ونذهب إليها معًا.

- حالًا سأرتدي ملابس الخروج.

■■■

فتحت الدولاب، ووقفت تختار، لكنها تذكرت ذلك الحب الذي نشأ بين زوجها والمهندسة بيلسان ودفعه للإفصاح عن رغبته في الزواج بها وكيف كانت تشعر بما طرأ على زوجها من تغير في مشاعره وكيف كان يخدعها وينتحل الأعذار واسترجعت الذكريات..

كانت تنتظره جالسة أمام التليفزيون، تتابعه بلا تركيز ودوامات الغضب تتزاحم في عقلها، فتنظر بين لحظة وأخرى إلى ساعة الحائط ثم تقف وتمشي جيئة وذهابًا وهي تفكر فيما ستواجهه به من أسئلة وشكوك حول كذبه وغيابه عنها طوال اليوم ومع من قضى كل هذا الوقت، ثم تعود وترمي نفسها على كنبة الأنتريه وتحاول أن تجد شيئًا يسليها في قنوات التليفزيون، دون جدوى، أخيرًا سمعت باب الأسانسير ثم خطواته تتجه إلى باب الشقة ويده تدير المفتاح في الباب، ضغطت زر الريموت لتطفئ التليفزيون، وهي تنظر نحو باب الشقة والشرر يتطاير من عينيها، دخل مبتسمًا كعادته وقال بكل ثقة:

- مساء الخير يا سوسو.

- أين كنت ومع من قضيت كل هذا الوقت؟ من هي التي فضلت أن تقضي إجازتك معها وفضلتها عني اليوم؟

- يا ااه، أوصل بك سوء الظن إلى هذه الدرجة؟

- طبعًا.. بم تفسر ما فعلته بي اليوم؟

- سوسـو، اهدئي، أنت أسـتاذة جامعية، اعرفي الحقيقة أولًا ثم احكمي ولا تتركي وساوس الشيطان تلعب برأسك هكذا!

- لم تكن في النادي، وقد سألت الدكتور سيف فقال إنه لم يرك بالنادي.

- اسـمعيني أولًا لتعـرفي ما جرى، فقد خرجت مـن النادي قبل وصول الدكتور سيف، اسمعيني.

- ها.. تكلم..

- قبـل وصـول صديقي سـيف وبقيـة الشـلة، قمنا للتسـخين مع بعض الأصدقاء وكان بينهم المهندس حشمت.

- من حشمت هذا؟

- صديق قديم لا تعرفينه، قابلته بالصدفة وأخذته معي إلى النادي وليتني ما فعلت.

- لماذا؟

- لأنه مريض بالسكر وقام يلعب معي فوقع وانكسرت ساقه.

- وطبعًا حملته وذهبت به إلى المستشفى.

- وهناك اكتشـفت أن لديه فوبيا المستشـفيات، كأنهم سـيقبضون روحه على سرير المستشفى، فبقيت معه.

- حلال فيك، هذا جزائي لأنك غدرت بي وفضلت أصدقاءك عليَّ.

- يا ااه.. كان يومًا صعبًا بشكل عجيب.

قالهـا وهـو يزوغ منهـا متجهًا إلى غرفة النوم ليبدل ملابسـه وعلى شـفتيه ابتسامة ماكرة تحولت إلى ضحكة مكتومة وهي تسأله:

- ميدو.. ألست جائعًا؟

- ميت من الجوع يا روحي.

- حالًا سأجهز السفرة.

مرت العاصفة بسلام وتناولا العشاء ثم جلسا يتجاذبان الحديث ويتسامران ويتابعان برامج التليفزيون وختما السهرة بممارسة الحب..

■■■

في اليوم التالي رجع من عمله قليل الكلام على غير عادته، شارد الذهن، يبدو مهمومًا، مشغول البال، جمعتهما مائدة الطعام، لاحظت أنه يأكل بفتور، ظلت ترمقه بنظرات خاطفة وتفكر فيما أصابه اليوم، بحاسة الأنثى أدركت أن شيئًا ما قد تغير في زوجها فسألته:

- ما لك يا أحمد؟

- هه، لا شيء.

- ألا يعجبك الطعام؟

- لا، إنه لذيذ جدًّا.

- إنك تأكل بفتور وأنت شارد الذهن.

- بالعكس، أكلت كثيرًا، الحمد لله.

مسح فمه بطرف الفوطة وقام، لم تشأ أن تعجل بالعراك وآثرت المهادنة فأكملت تناول طعامها ثم حملت الأواني والأطباق إلى المطبخ وشغلت نفسها بغسلها، كانت تتوقع أن يفتح التليفزيون كعادته ليشاهد المباراة المهمة التي أعلنوا عنها بالأمس المؤهلة لنصف نهائي كأس أوروبا، لكنه

دخل غرفة النوم ولم يخرج، ظنته يصلي، فلما انتهت من شغل المطبخ توجهت إليه فوجدته مستلقيًا على السرير وبين يديه ملفات ورقية يتصفحها باهتمام، بدلت ملابسها وهي تراقبه بطرف خفي ثم عطرت جسمها برشة من العطر الذي يحبه على أمل أن تلفت نظره دون جدوى، اقتربت وسألته باستغراب:

- ألم تنته من عملك في الشركة؟

- لم يسعفني الوقت وهذه الملفات تحتاج مراجعة.

- ظننتك ستشرب الشاي معي ونجلس للحديث معًا بعض الوقت.

- لا وقت لدي، سأشرب الشاي هنا.

- كما تريد.

دخلت لإعداد الشاي وهي تقاوم إحساسها الأنثوي وتحاول أن تكبت الأفكار الفائرة داخلها لتقنع نفسها أنه فعلًا مشغول وليس بالأمر إلا ضغوط العمل، حملت الشاي وعادت إليه، وضعت الصينية بجانبه على الكومودينو:

- الشاي يا أحمد.

- شكرًا.

خرجت وشغلت نفسها بالفرجة على برامج التليفزيون، بعد قليل سمعته يتحدث في التليفون، خفضت صوت التليفزيون وأرهفت سمعها فأدركت أنه يتحدث إلى أخيه، ظنته يطمئن على صحة أمه فأعادت صوت التليفزيون وركزت في تصفح القنوات حتى جذب انتباهها مسلسل درامي فأسندت ظهرها وأخذت تتابعه باهتمام ولم تدر إلا وزوجها يخرج إليها وقد ارتدى بذلة كاملة وبادرها بفتور:

- سعاد، أنا خارج.

- إلى أين؟

- المشـاية التـي تمـارس أمي الرياضـة عليها يبدو أنها تعطلت، سـأذهب لمركز الخدمة لكي يقوموا بإصلاحها أو استبدالها.

- ألا تنتظـر حتى أبـدل ملابسي وأجيء معك لكي أرى الحاجة وأطمئن عليها؟

- لا.. مرة ثانية حتى لا أتأخر.. عن إذنك.

- مع السلامة.

خـرج فانشـغلت عـن متابعـة المسلسـل بأفكارهـا التـي ازدادت صخبًا وعنفوانًـا وثـورة، فليـس طبيعيًّـا أن يتأنق هكـذا وهو ذاهب إلى أمـه! أم أنه متأنق لزوم الوجاهة الاجتماعية والحفاظ على «البرسـتيج» أمام المسـئول عن مركـز الخدمـة الذي سـيذهب إليه؟ أم لأنـه.. أم أنه.. وكلما جـال بخاطرها أن هـذا التأنـق يخفي شـبهة علاقـة عاطفية، تثـور وتطرد هـذا الخاطر الذي لا يعجبها، بل ترفضه ولا تستسـلم لوساوسـه، أخيرًا قامت لتفتش أوراقه، التـي وجدتها ما زالت مرصوصـة بجوار السرير وقربهـا الصينية وبها كوب الشاي، لم يشرب إلا نصفه فقط، تصفحت الملفات فوجدتها تخص ميزانيات وتوريدات الشركة، هزت رأسها باطمئنان وقبل أن ترص الملفات كما كانت وقع بصرها على ملف مختلف ويحمل غلافه عنوان: (مصارع العشـاق) لكنه مشطوب ومكتوب فوقه بخط اليد: (النبلاء).

تصفحـت الملف باسـتغراب، فوجدته يحكي قصص عشاق العرب من أمثال: مجنون ليلى، كثير عزة، جميل بثينة، قيس لبنى وغيرهم، سـألت نفسها:

لماذا يهتم أحمد بقراءة حكايات الحب العذري هذه؟ هل تنوي شركته إنتاج برامج عن هؤلاء العشاق؟ ربما.. فها هو يغير العنوان بخط يده.. لا بأس.. إنه ملف يخص عمله.

أعادت الملفات إلى وضعها وحملت الصينية وهي مطمئنة إلى أن كل شيء على ما يرام وقد يكون مهمومًا بحالة أمه الصحية، فليس في الأمر ما يدعو للقلق، جلست مرة أخرى أمام التليفزيون لمتابعة المسلسل الدرامي، أصابها الملل بعد لحظات فأغلقت التليفزيون، تناولت كتابًا لتقرأه، تذكرت حماتها، رفعت سماعة التليفون، سألتها عن صحتها وفهمت من كلامها أن أحمد ليس موجودًا عندها وأنها تنتظره، وضعت السماعة وهي تتساءل:

– أين ذهب هذا الرجل؟ أما زال موجودًا بمركز صيانة الأجهزة؟ أم أنه ذهب لموعد غرامي واستغفلني؟ لقد خرج متأنقًا وحتى الآن لم يذهب إلى أمه.. فأين هو يا ترى؟!

حاولت أن تتغلب على وساوسها وظنونها، لكنها كانت تتفاعل داخلها وتنذر بثورة غضب عاتية، وكأستاذة جامعية، رتبت التفاصيل والملاحظات الدقيقة بجانب بعضها، قامت بتحليلها، استخلصت النتائج وقالت لنفسها:

– أحمد يعرف امرأة أخرى، لقد خرج من هنا في السادسة والنصف وحتى الآن لم يذهب إلى أمه فمع من يقضي كل هذا الوقت إن لم تكن هناك امرأة أخرى؟

قامت كمن هبت فيها النار، دخلت غرفة النوم، أخذت تفتش ملابسه، أدراجه، حقيبته، تبحث عن أية رسالة، أي أثر يدل على وجود امرأة أخرى،

وقفت حائرة، تقدح زناد فكرها وتفرك أصابعها بعصبية، وفجأة تذكرت «اللاب توب» تناولته وفتحته، حاولت أن تتذكر كلمة المرور «Pass Word» التي يستخدمها وتدعو الله ألا يكون قد غيرها، جربت فنجحت في الدخول إلى صفحته الرئيسية وبدأت تفحص رسائل بريده الإلكتروني، جميعها كانت تخص العمل، لكن أحدث رسالة وصلته وربما منذ لحظات، لفت نظرها أنها مرسلة من امرأة تدعى بيلسان، وكانت رسالة غامضة لكنها تشي أن ثمة علاقة خاصة تربطه بهذه السيدة فنص الرسالة:

«أنا وحماتي والحاج عبد العظيم والأولاد نشكرك وندعو الله أن يزيدك من نعيمه ويبقيك لنا أخًا عزيزًا. المخلصة: بيلسان».

قرأت الرسالة عدة مرات في محاولة لاستخلاص الدلائل والمعاني لاستنباط نوع وشكل العلاقة التي تربطه بهذه المرأة وعن أي شيء تشكره وإذا كان توقيت الرسالة منذ قليل فهل كان أحمد يؤدي لها خدمة طوال هذه الساعات ولذلك توجهت له بالشكر والدعاء له بزيادة النعمة، ثم لماذا لم تذكر زوجها، أهي أرملة؟ لكنها تقول حماتي والحاج والأولاد.. فهل الحاج هذا هو زوجها؟ بعد طوفان الأفكار الحائرة التي راودتها، أغلقت الجهاز وأعادته إلى مكانه وسألت نفسها:

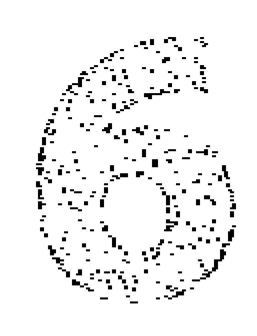
- ترى هل يصح أن أفاجئه بسؤال مباغت عن بيلسان ومن تكون بالنسبة له؟ لا، لا.. لو فعلت ذلك فسيكتشف أنني اطلعت على بريده الإلكتروني فيحتاط ويغير كلمة المرور، الأفضل ألا أخبره حتى يظل مطمئنًّا فأطلع على رسائلها له بعد ذلك وأعرف الحقيقة.

قامت وشغلت نفسها بإعداد كوب من «النسكافيه» ثم جلست تشربه أمام التليفزيون، بعد لحظات فتح الباب ودخل فسألته بهدوء عن سبب تأخره وتظاهرت أنها تصدقه خاصة وقد لاحظت أنه تخلص من توتره وقلقه وعاد منشرحًا يتحدث إليها بمودة ولطف ويحاول مداعبتها والتودد إليها وحينها لاحظ فتورها قال:

- ما لك يا سوسو؟

- أبدًا، أشعر بصداع.

تذكرت تلك الليلة وهي تتناول قطع «التايير» من شماعة الدولاب وابتسمت لتلك المشاعر التي كانت تعذبها، ارتدت التايير وصففت شعرها ثم اختارت إيشاربًا تتناغم ألوانه مع ما ترتديه، تعطرت وجلست تنتظر أحمد، انتبهت إلى صوت كلاكس السيارة، يستعجلها، تناولت حقيبتها على عجل ونزلت، فركبت إلى جواره.



كانت سعاد تحدثه وهو يقود السيارة في صمت، ظنته يركز في قيادة السيارة بينما هو مستسلم لطوفان الصور التي أشرقت في خياله بتفاصيل سهرة عائلية، يذكر أنه قام بشراء جهاز المشي (تريد ميل) وأخرج ورقة من جيبه، أعطاها لسائق سيارة خدمة الصيانة قائلًا:

- هذا هو العنوان ويستحسن أن تتبع سيارتي.

كان يتابع من خلال المرآة سيارة الخدمة التي تتبعه، لم يكن قد زار بيلسان في بيتها من قبل ولكنه يعرف شارع جسر السويس جيدًا، فلما اقترب هدأ سرعة السيارة ولف من أول تقاطع وأخذ يقرأ أرقام البيوت حتى توقف أمام بوابة بيتها، نزل متجهًا إلى علبة «الإنتركم» ضغط الزر وانتظر برهة فسمع صوت الفلبينية فضيلة تسأل:

- من؟

- أنا أحمد سمير مختار.

- ماذا تريد؟

- هل السيدة بيلسان موجودة؟

- لا، انتظر حتى أبلغ سيدي.

ثم جاءه صوت أمجد يسأل بشقاوة:

- من؟

- أمجد حبيبي، أنا أنكل أحمد.

- يا اه.. أنكل أحمد، أنكل أحمد يا روان.

صاح بفرح وتلقائية، في تلك الأثناء فتح باب البيت وخرج الحاج عبد العظيم:

- أهلًا أستاذ أحمد، تفضل.

- أرجو أن تدل العمال أين ينصبون هذه المشاية.

- هل بيلسان هي التي اشترتها؟

- إنها تحبك أنت والحاجة حبًّا تعجز الكلمات عن وصفه.

- هي فعلًا ابنتنا وقد أخذت الحاجة وذهبت بها إلى الطبيب.. تفضلوا.

فتح باب البيت على مصراعيه وسبقهم إلى الداخل، فتبعه أحمد وخلفه عاملان يحملان المشاية الكهربائية، التفت الحاج عبد العظيم إليهم:

- ها هو البيت أمامكم، اختاروا لها المكان المناسب. تأمل أحمد غرفة الاستقبال الواسعة فوجدها مفتوحة على فيراندة كبيرة تطل على الحديقة الخلفية للبيت، أشار إلى الفيراندة قائلًا:

- أعتقد أن هذا هو المكان المناسب لتكون قريبة من هذه الحديقة الجميلة بأشجارها المنسقة وزهورها البديعة.

- إنها سلوتي في وقت الفراغ.

- ربما تكون مساحتها صغيرة ولكنها رائعة.

- تفضل أحمد بك.

جلسا يتجاذبان أطراف حديث ودي بينما أخرج العاملان المشاية من الكرتونة وقاما بتركيب أجزائها ثم وصلا إليها الكهرباء وقاما بتجربتها.

شكرهما أحمد ونفح كلًّا منهما بقشيشًا ثم دعا الحاج عبد العظيم لتجربة المشي فوقها فأعجبته وشكر أحمد الذي رد بحميمية:

- يا عمي اعتبرني مثل ابنك حاتم رحمة الله عليه.

ضغط العجوز زر الجرس فنزلت فضيلة وأقبلت عليهما، ألقت السلام مع ابتسامة رقيقة، بادرها العجوز بمودة:

- آنسة فضيلة، أعرف أنها ليست وظيفتك ولكن يطمع عجوز مثلي في أن تقدمي لضيفه العزيز فنجانًا من القهوة!

- بكل سرور سيدي، وأنت ماذا تشرب؟

- اجعليهما فنجانين من القهوة حتى لا أتعبك.

- القهوة مضرة لك سيدي.. سأعد لك مشروبًا مهدئًا.

- أشكرك آنسة فضيلة، بارك الله فيك.

انصرفت فأشار العجوز تجاهها وقال لضيفه:

- فضيلة هذه من اختيار ابني حاتم رحمه الله.

- أهي فلبينية؟

- نعم، عندما كانت بيلسان حاملًا في طفلها الأول أمجد، سافر ابني حاتم إلى دبي لإنجاز عمل أسند إليه في إحدى الشركات، وبقي هناك ستة أشهر، ثم رجع ومعه فضيلة.

- طبعًا كانت مفاجأة؟

- وأية مفاجأة.. كانت بيلسان قد وضعت فجاءت معنا نستقبله في المطار، كانت سعيدة جدًّا بالمولود وتريد أن تقدمه لحاتم بمجرد نزوله من الطائرة كأنها تقدم له شيئًا ثمينًا ائتمنها عليه ورغم حبها الشديد له فإنها اضطربت وتكدرت بمجرد أن دخل حاتم صالة الوصول وبرفقته هذه الفتاة فضيلة.

- ظنته تزوج عليها في دبي؟!

- نعم، هذا ما خطر في بالها.

- وماذا فعلت؟

- أصابتها صدمة فعجزت عن الكلام، وبدلًا من أن تجري إلى زوجها وتأخذه في حضنها بعد ستة أشهر من الفراق ولوعة الاشتياق، إذا بها تمد ذراعيها وتقدم له الطفل وهي تشيح عنه بوجهها وتتجنب النظر إليه.

- الغيرة تؤتي مفعولها سريعًا مع النساء.

- وأية غيرة يا أحمد بك.. إن قصة حبها تكاد تكون أسطورة.. أتدري أنها في نظر أهلها كانت تستحق القتل؟

- لأن الصابئة لا يتزوجون من غير مِلَّتهم؟

- من رابع المستحيلات، ولولا أن والدها - رحمة الله عليه - كان كبيرًا في عشيرته وكان أبًا حنونًا واسع الأفق لما رضخ لرغبتها ووافق على زواجها من ابني حاتم وسفرها معه إلى مصر.

كان العجوز يتحدث بتلقائية ويجتر ذكرياته الجميلة بينما يتأمل ضيفه صورة غريمه حاتم المعلقة أمامه على الجدار فيراه شابًّا وسيمًا تشي ملامح وجهه بالنبل ودماثة الخلق، وحدثته نفسه:

- بيلسان كانت محقة في أن تحبه هذا الحب العظيم الذي لا يجعلها فقط تهجر أهلها لأجله ولكنها تبقى الآن وفية لذكراه وأمينة على أهله ومشاعرهم، يا لها من جوهرة بين النساء.

رجعت فضيلة تحمل صينية عليها فنجان القهوة وقد فاحت فملأت المكان برائحة البن المحمص، وضعت الفنجان على منضدة صغيرة أمام أحمد قائلة:

- تفضل سيدي.

- شكرًا.

ثم وضعت مشروب النعناع الساخن أمام العجوز الذي ربت على كتفها بامتنان، أشارت إلى أعلى وقالت له:

- هل تسمح لأمجد وروان أن ينزلا ليسلما على أستاذ أحمد؟

- وهل انتهيا من عمل الواجب المدرسي؟

- نعم.

- إذن اسمحي لهما بالنزول.

اكتشف أحمد أن الطفل أمجد صورة مصغرة من أبيه حاتم، بينما روان أخذت الكثير من فتنة وجمال أمها، واعتبر ذلك دليلًا قاطعًا على أن الحب الذي جمع بين حاتم وبيلسان كان حبًّا قويًّا لدرجة أنهما أنجبا نسخة منهما، دخلت روان وخلفها أمجد فابتهج أحمد لرؤيتهما وقام يصافحهما ويقبلهما ويتأمل بشرتهما الجميلة ناصعة البياض، وتلك الألفة والبراءة التي تشع من صوتهما وحركاتهما كأنهما فرخان خرجا توًّا من عش أمهما ليتعلما الطيران، كان أحمد مستعدًّا للقائهما، فمد يده في جيب الجاكت وأخرج لوحين من

الشـيكولاتة الفخمة، قدم لـكل منهما واحدًا وبسرعة الـبرق تبادل الطفلان نظرة معبرة مع جدهما الذي أومأ لهما بالموافقة، فتناولا الشيكولاتة بامتنان:

- شكرًا يا أنكل.

توقع أحمد أن يفتحا غلاف الشيكولاتة ويلتهماها التهامًا، ولكنهما لم يفعلا ذلك وانشغلا عنها بالتحدث إلى جدهما عن الدروس والواجبات التي كانت مطلوبة منهما اليوم، حاول أحمد أن يتدخل في الحديث فقال:

- أمكما متميزة جدًّا في عملها، فهل أنتما مثلها في الدراسة؟

ردت روان في ثقة: يعني.

وهز أمجد رأسه بفخر قائلًا: أنا دائمًا الأول على الفصل.

- مـا شـاء الله، طيب ما دام الأمر كذلك فسـوف أعد لكـما مفاجأة ليوم الجمعة القادم.

- أتأخذنا لنلعب معك التنس بالنادي الأهلي؟

- لا.. مفاجأة أكبر.

- أبعد من ذلك ماما لن توافق.

- ما رأيكما في ألعاب الماء «بالكريزي ووتر»؟

- واااو!

في تلك اللحظة دخلت بيلسان تتأبط ذراع حماتها فتساءلت باستغراب:

- ما هذا؟ أعندنا ضيوف؟

- إنه الأستاذ أحمد.

- أهلًا وسهلًا.

- أعتـذر عن زيارتي المفاجئة، ولكني أحببت أن أطمئن على «طنط» فهي مثل أمي.

- مفاجـأة سـعيدة طبعًـا وأهـلًا بـك، ولكـن كنـا نـود أن نقـوم معـك بالواجب.

- لقد سـعدت جدًّا بالتحدث مع عمي عبـد العظيم بك والأولاد، فهل طمأنكم الدكتور على صحة طنط؟

- الحمد لله، أشكرك يا أحمد بك.

أشار العجوز إلى جهاز المشي المنصوب في الفيراندة وقال:

- انظري يا حاجة، أحمد بك أحضر لك هذا الجهاز.

واستدرك أحمد موضحًا:

- عـلى فكرة أمي مثل حضرتك تعـاني من الروماتيزم ونظرًا لأن حركتها قليلـة أوصى طبيبها المعالج بهذا الجهاز لتمارس عليه رياضة المشي، أعتقد أنه سيفيدك أيضًا.

- أشكرك ولكن هذا الجهاز غالي الثمن و...

- ثمـن الجهـاز دفعتـه بالكامل ابنتك بيلسـان وأنا ما عـليَّ إلا التوصيل، أرجو أن يعجبك.

- يكفي ذوقك وتعبك.. ألف شكر.

نظرت بيلسان في ساعتها وقالت لهم:

- عشر دقائق ويكون العشاء جاهزًا.

- طيب، اسمحوا لي بالانصراف.

قالها أحمد وقام يمد يده لمصافحة العجوز الذي رفض بشدة:

- لا، والله، لا يصح، سنتعشى معًا.

- لقد تأخرت وأنا أصلًا ليس لي في العشاء.

- ومن سيعلم الحاجة كيف تستخدم هذه المشاية؟

- إنها بسيطة جدًّا.

- بينما توضح لها كيف تستخدمها سأكون قد جهزت العشاء.. تفضل يا أستاذ، لن تهرب.

وضحكت بيلسان ثم صعدت السلم وهي تنادي:

- فضيلة.. يا فضيلة.

بعد العشاء رن جرس المحمول، فوضع أحمد كوب الشاي من يده ورد قائلًا:

- نعم يا ماما، ربع ساعة بالضبط وسأكون عندك.. مع السلامة يا ست الحبايب.

أغلق الموبايل والتفت إلى مضيفه العجوز:

- أمي تنتظرني فاسمح لي بالانصراف.

قام يصافحهم وخرج العجوز معه، عند باب السيارة أمسك العجوز الظرف ودسه في جيب أحمد قائلًا:

- الكلمات تعجز عن التعبير عن شكري وامتناني لك.

- ما هذا؟ فلوس؟

- هذا ثمن المشاية ويكفي تعبك من أجلنا.

- لا، ثمنها وصل يا حاج عبد العظيم.

- نعم، أعرف أنك دفعته، لكن والله العظيم لا ترد هذا الظرف.

- يا حاج أنا لم...

- لقد أقسمت وأنا مثل والدك.

- ولماذا تقطع العشم بيننا هكذا؟

- بالعكس، أطعني حتى لا أشعر بالحرج، وإذا احتجت شيئًا أطلبه منك كابن لي.

- وأنا يسرني جدًّا أن أكون ابنًا لك.

- بارك الله فيك.

■■■

دخل عليه مدير مكتبه فرحًا متهللًا:

- فازت شركتنا بمناقصة وزارة الداخلية.

- مشروع التحكم الآلي بإشارات المرور، هذا شيء طيب، ادع رؤساء الأقسام لاجتماع عاجل.

- قسم الصيانة رئيسه سافر لشراء قطع الغيار فهل تحضر بدلًا منه المهندسة بيلسان؟

- نعم، فهي المكلفة بعمله حتى يرجع.

قضى ساعات طويلة، يناقش مع رؤساء الأقسام خطوات تنفيذ هذا المشروع وما يستلزمه من عمال وفنيين وأجهزة ومعدات ثم كلف كلًّا منهم

بتكويـن مجموعـة عمل يشرف عليهـا في إنجاز ما يخصه مـن المشروع، وبعد الاجتماع انصرف الجميع، لكنه استبقى السيدة بيلسان متعللًا:

– بيلسان.. انتظري من فضلك، أريد أن أستوضح منك أمرًا.

جلسـت مـرة أخرى وهي تـدرك أنه حتـمًا لن يتحدث معهـا بخصوص العمل، كان يتأملها بنظرة تفضح إعجابه وحبه الشديد، وقال في مودة:

– كيف حال أمجد وروان؟

– بخير والحمد لله.

– أرجو ألا يضايقك العرض الذي قدمته لهما.

– «الكريزي ووتر»؟

– وسوف تكونين معنا لنقضي يومًا جميلًا.

– لو جئت فسوف أصطحب معي حماي وحماتي.

– لا بـأس، هذا سـيقوي العلاقـة بيننا ويجعلهما يتقبلاننـي ويوافقان على زواجنا.

– وماذا عن زوجتك؟

– في الحقيقـة لم أفاتحها في الأمر بعد، ولكني أمهد لهذا الموضوع بالتدريج حتى لا أصدمها.

– يهمنـي جـدًّا موافقتها وأن تعتبرني أختًا لها ولسـت عدوة خطفت منها زوجها.

– إنها أستاذة جامعية، وعند اللزوم ستقتنع وتسلم بأنها يجب ألا تحرمني من حقي في أن يكون لي ولد، المهم.. كيف سنلتقي يوم الجمعة؟

- لا تتعب نفسـك، ستأتي إلى «الكريزي ووتر» فتجدنا في انتظارك، هذه ليست أول مرة.

- بيلسان، إنك لا تتصورين سعادتي وأنا معك أنت والأولاد، وأدعو الله أن يوفقنا ويجمع شملنا قريبًا في أسرة واحدة.

- بإذن الله، دعني أنصرف الآن حتى لا أتأخر على الأولاد.

- تفضلي.

خرجـت وهو يودعهـا بنظرات المحـب الولهان ثم مد يـده إلى التليفون، لكنه تراجع، كان يشـعر بالسـعادة ويريد أن يخبر أحدًا بمشاعره ويبوح بكل أحاسـيس تلك العاطفة الجميلة التي تملؤه وتسري في كل أوصاله وسكناته، لكنـه تردد وسـحب يده، قام إلى النافذة، كانت بيلسـان قد عبرت الشـارع، شـاهدها تركـب سـيارتها، رجعـت بها قليـلًا للخلف ثـم عدلـت مقدمتها وانطلقـت بها حتى ابتعدت وغابت عن نظره، فهز رأسـه بمنتهى الإعجاب وقال:

- يا لك من امرأة رائعة.

■■■

عندما جلس لتناول العشاء مع سعاد بدا لها مرحًا بشوشًا فوجدتها فرصة لتخبره بما لا يتوقعه:

- اسكت يا أحمد، جاءتنا دعوة لحضور فرح سوف يحضره الوزراء وكبار المسئولين وعلية القوم.

- فرح من هذا؟

- حفل زفاف «إنجي» ابنة عمي.

- أهي إنجي ابنة وجدي بك.. يا اه.

- أتذكرها وهي طفلة تقف إلى جانبي في حفل زفافنا؟

- نعم... ومتى حفل زفافها؟

- غدًا.. الجمعة.

- سبحان الله.. هذه الجمعة بالذات؟

- ماذا وراءك؟

- لقد فزنا بمناقصة وزارة الداخلية وعندي اجتماع غدًا مع كبار المسئولين في الوزارة.

- الحفل بعد المغرب وستكون قد انتهيت من اجتماعك هذا.

- عمومًا إذا تأخرت فاسبقيني وسوف ألحق بك.

هكذا وبكل سهولة وجد عذرًا لخروجه المبكر غدًا وقضاء اليوم كله مع محبوبته بيلسان وأسرتها، دون أن ترتاب سعاد، فظنته مشغولًا عندما حمل بعض الملفات وانزوى في غرفة النوم يتصفحها وهو يتمدد في السرير، ولم يخطر ببالها أنه يقرأ قصص الحب العذري على صوت أغان رومانسية حالمة تنساب من إذاعة الأغاني في الراديو الملاصق للسرير، قامت سعاد هي الأخرى تقلب في بعض الكتب والمراجع وانشغلت بأبحاثها وأفكارها، فتحولا إلى جزيرتين متباعدتين وهما يعيشان تحت سقف واحد.

■■■

تقلب أحمد في مضجعه ثم انتبه إلى شعاع الشمس يخترق فضاء الغرفة من زاوية الشباك، التفت إلى زوجته المستغرقة في النوم، ثم قام فأحست به سعاد وقالت متذمرة:

- يا أحمد.. ما زال الوقت مبكرًا.

- سعاد، ابق أنت نائمة.

- أتظن أحدًا من المسئولين سيتوجه إلى اجتماع في يوم الجمعة مبكرًا هكذا.

- اهدئي وابقي نائمة، ما زال أمامي أن أحلق ذقني وأصلي ثم...

- خلاص يا أحمد.. لن أنام.

جلست في السرير وهي تفرد شعرها وتنظر له بغضب، آثر أن يخرج من الغرفة قبل أن تبدأ ثورتها ويسمعها الجيران، فتركها ودخل الحمام، قامت فلبست الروب وأعادت ترتيب السرير ثم فتحت النافذة، أعجبها شروق الشمس وشعاعها الذهبي يملأ السماء، ويفيض على كل شيء، فتحت باب البلكونة، تناولت صحف الصباح التي دسها الموزع من تحت باب الشقة، جلست على كرسي يغطيه ضوء الشمس وبدأت تتصفح الجرائد، رجع أحمد وهو يتمتم بدعاء ختام الصلاة ثم ابتسم لها وبادرها:

- صباح الخير يا سوسو.

- أنت هكذا دائمًا، عندما يكون لديك موعد لا يهنأ لك نوم ولا بال وتزعج من معك.

- صباح الخير يا سوسو.

أدرك أنـه يجب أن يخـرج أمامها الآن مرتديًا بذلة تناسـب لقـاءه المزعوم بمسـئولي وزارة الداخليـة، فتـح الدولاب، انتهـز فرصة انشـغالها في المطبخ ودس في حقيبته فوطة صغيرة وترييننج سـوت وحـذاء رياضيًا خفيفًا، أغلق الحقيبة ووضعها خلف باب الشقة ثم بدأ يرتدي البذلة التي سيخرج بها.

كان حريصًا أن يصل إلى «الكريزي ووتر» قبل بيلسـان، وهناك رتب كل شيء بدايـة مـن بوابة الدخول وحتـى المنضدة التي خصصـت لهم والمدرب الذي سـيشرف عـلى ألعاب الأولاد، ثـم دخل غرفة تبديـل الملابس وخرج بالحـذاء الرياضي والترييننج سـوت وجلس يشرب فنجانًـا من القهوة، حتى وصلـوا فقـام يسـتقبلهم كأنه صاحـب هذه المدينـة الترفيهية، جلسـوا وهم يعبرون له عن امتنانهم، لكنه وضع ذراعيه على كتفي أمجد وروان وقال:

- أما أنا فمثلكما، عمري لا يتجاوز الخامسة عشرة لذلك جئت بملابس تناسب الألعاب المائية فهيا ننطلق.

كان يتصور أن بيلسان ستلحق بالطفلين، فيتمكن من التحدث معها بعيدًا عن حماها وحماتها ولكنها بقيت جالسة معهما واكتفت برؤية الطفلين من بعيد وهما ينزلقان في جداول المياه المائلة ويطلقان صيحات الفرح، فيلوح لهما أحمد الذي همس بعد ذلك في أذن المدرب ورجع لينضم إلى ضيوفه:

- أهلًا، أهلًا.. هل طلبتم شيئًا؟

- نعم، شكرًا لك على هذه الحفاوة.

- الأطفال هم صانعو السعادة، اعذروني أنا ضعيف جدًّا أمام الأطفال، أتمنى لو أرجع طفلًا مثلهم.

- ومن منا لا يتمنى أن يرجع به الزمن.

- إيه.. قل للزمان ارجع يا زمان على رأي ثومة.

جاء الجرسون ووضع أمامهم القهوة والشاي وزادت الحميمية بينهم، فنظر إلى بيلسان وسألها باهتمام:

- مدام بيلسان.. ما لك؟

- لا شيء.

- لا.. دعيني أصارحك بأن عينيك فيهما أثر البكاء.

- كان الله في عونها.

قالتها حماتها ومدت يدها تربت على كتفها واستطردت:

- ومن منا لا يبكيه ما يجري في العراق؟

- بيلسان يا أستاذ أحمد كتلة من المشاعر.

وهنا انفجرت بيلسان بالبكاء، فشعر أحمد بالحرج:

- أنا آسف جدًّا، لم أقصد تقليب المواجع، اهدئي.

- ليلة البارحة رأيت بيت خالي وقد هدم تمامًا وصار أنقاضًا، والساحة التي كنا نلعب فيها مع أولاد خالي ونحن صغار امتلأت بأشلاء القتلى.. يا ربي!! ماذا فعلوا؟

قالت ذلك وأجهشت بالبكاء فهدأتها حماتها:

- تماسكي يا بيلسان، أنت مؤمنة بقضاء الله، وهذا ابتلاء يا حبيبتي، تماسكي حتى لا يراك أمجد وروان فيتركا اللعب ويبكيا معك.

مسحت دموعها وقالت:

- بالأمس رآني أمجد ولا أريده أن يتذكر.

- أنت قوية يا بيلسان فتماسكي..

- توجهي إلى الله بالدعاء لنصرة المستضعفين ورد كيد الطغاة والغزاة والمعتدين.

رجع أمجد وروان، فقدمت لهما بعض الساندوتشات ليأكلاها مع العصير، ثم وجدها أحمد فرصة ليدعوها أن تعدل مزاجها وتقوم لتمارس بعض الألعاب مع طفليها، ثم استأذن العجوزين وذهب معهم وهو يشجع محبوبته أن تستعيد بعضًا من مرح وبراءة الطفولة وتزاحم طفليها في ركوب بعض الألعاب المائية، وبعد إلحاح نجح أحمد في إخراجها من شعور الحزن والكآبة، فاندمجت في اللعب وهي تشجع الطفلين ثم انفرجت أساريرها وضحكت معهم، حينئذ شعر أحمد أنه يتسامى فوق كل الغرائز، أحس أنه يحبها كما هي، إنسانة رائعة، مليئة بالعواطف والمشاعر النبيلة، وامتد حبه للطفلين فكان يقبلهما ويأخذهما في حضنه فيمنحانه شعور الأب، وتمنى أن يصبح أبًا لهما حتى لو لم يرزقه الله بولد من صلبه، يكفيه أن يحتضن هذين البرعمين الجميلين طوال عمره، حتى لو لم يسمع منهما إلا نداء: «أنكل أحمد».

مضى النهار بين لعب وضحك ومرح وأحاديث حميمية دافئة، وأزف وقت الرحيل فودعهم وهو يكاد يطير على أجنحة السعادة، في تلك الليلة حضر مع زوجته حفل زفاف إنجي ابنة عمها، وهناك تجسدت بيلسان بجانبه في فستان الفرح وهو يجلس معها في «الكوشة» وحملته أطياف خياله بعيدًا ليرى نفسه يرافق بيلسان في رحلة شهر العسل بأحد منتجعات هاواي، ظل يرتشف حلاوة حلم اليقظة باستمتاع ولذة فائقة ومع التصفيق والصفير الذي واكب دخول الراقصة دينا، حلق أحمد عاليًا في أطياف خياله الرحب

وتجسدت له الفاتنة بيلسان ترقص له وحده وتتلوى مثلما تفعل دينا لتبرز مفاتن أنوثتها الطاغية، واختمرت في عقله الفكرة فانتظر حتى رجعا إلى البيت وحينها بادرته سعاد قائلة:

- كان حفلًا رائعًا.

- نعم.

قالها بفتور وهو شارد الذهن فسألته:

- ما لك يا أحمد؟

- هه، لا.. أشعر بحرقة في فم المعدة.

- أأكلت شيئًا يسبب الحموضة؟

- لا أدري.. ربما الحلويات الشرقية هي السبب.

- اشرب كوبًا من اللبن الرائب.

قامت وأخرجت العلبة من الثلاجة ثم صبت له كوبًا تناوله وأخذ يشربه وهو يقلب أفكاره وينظر إليها في توجس وقلق، ثم حزم أمره فوضع الكوب فارغًا وقال لها:

- سوسو.. لقد قررت أن أتزوج.

- نعم؟! ماذا قلت؟

- أريد أن أتزوج امرأة تنجب لي طفلًا قبل فوات الأوان.

- هل فتح الفرح شهيتك للزواج؟ أم أنك قررت فجأة أن ترميني وتتخلص مني؟

- بالعكس.. ستبقين معززة مكرمة لك كل حقوق الزوجة الأولى الأثيرة إلى النفس.

- أحمد، طلقني..

- أرجوك، لا تتسرعي.

- قلت لك طلقني يا أحمد..

- لقد اخترت امرأة تخاف الله ولن تجور على حق من حقوقك صدقيني، إنها امرأة رائعة ستمنحني الولد وتكون أختًا لك..

- ومن هذه التي أحببتها وذبت فيها عشقًا وتصفها أمامي هكذا بالرائعة وبلا خجل أو مواربة؟

- إنها تعمل معي في الشركة.

- أهي بيلسان؟

- أتعرفينها.

- وأعرف أنك تحبها منذ فترة وربما تخونني معها.

- لا، أقسم لك أن علاقتي بها طاهرة، إنها متدينة وتخشى الله.

- هذا فراق بيني وبينك، طلقني.

- لا، لن أطلقك.

- إذن سأعود إلى بيت أبي والمحاكم بيننا.

وانتفضت تجري إلى غرفة النوم، أحضرت حقيبة وفتحت الدولاب، جرى وأخذ الحقيبة بعيدًا عنها ثم وقف أمام الدولاب وقال:

- سـعاد، إن كان الفـراق مصيرنـا فيجـب أن يتـم بهـدوء، أنت أسـتاذة بالجامعة وأنا رجل أعمال لي وضعي وسمعتي.

- لم أتصـور أبـدًا أن تهـون عليـك العـشرة وتطعننـي في كرامتـي بهـذه السهولة.

- يـا حبيبتي، هذا شرع الله، وهذا حقـي، أريد امرأة تنجب لي طفلًا، فلا تنكري عليَّ حقي.

- طلقني يا أحمد.

قالتها صارخة فوضع يده على فمها راجيًا:

- أرجوك، لا داعي للفضائح، وإن كان على أي منا أن يخرج الآن فسوف أخرج أنا ولنعتبر أننا في إجازة زوجية حتى نفكر ونتخذ القرار المناسب.

- ما دمت خنتني وفكرت في امرأة أخرى فلا سقف يجمعنا بعد اليوم.

- لا بـأس، ولكن لنتصرف كأناس متحضريـن.. نبتعد لفترة ويفكر كل منا فيما يصح أن يفعله.

أجهشت بالبكاء وارتمت على السرير، فجمع بعض ثيابه في الحقيبة وبدل ملابسه ثم حمل الحقيبة وخرج.

■■■

كان شاردًا مع ذكرياته، و نبهته سعاد قائلة:

- أحمد، هاتفك المحمول يرن.

- هه، نعم، سمعته.

- انتبه للطريق ودعني أرد عنك.

أخرج الهاتف من جيبه، كان رقم المتصل غريبًا عليه فتردد، ولكنها حفزته قائلة:

- رد بسرعة فقد تكون بيلسان.

- آلو.

- أستاذ أحمد أنا آسفة جدًّا، اضطررت لمغادرة المطار فلا تتعب نفسك.

- بيلسان أين أنت؟

- أخذت «تاكسي» وهو متجه بي الآن للبيت.

- ونحن في الطريق إليك أنا وسعاد، إلى اللقاء.

7

تأملـت سـعاد لهفة زوجهـا في الرد على بيلسـان عبر التليفون فاسـتيقظ داخلها شـعور الأنثى بالغيرة، وتذكرت حب أحمد لبيلسان، تذكرت يوم أن جلسـت تنتظـره وهي بملابس السـهرة، ليلة زفاف إنجي ابنـة عمها، كانت تطل من النافذة ثم ترجع لتنظر في السـاعة وكلما مر الوقت ازداد إحساسـها بالتوتر والعصبية وحينما استسـلمت لاحتمال أنها سـتذهب للحفل وحدها، قـررت أن تدخـل غرفتها لتتزيـن وترتدي ملابس السـهرة، في تلك اللحظة سمعت كلاكس سـيارته، أسرعت إلى النافذة وتنفسـت الصعداء وهي تراه يقود سـيارته ويركنها قرب بوابة العمارة، ثم نزل منها وأشار بيده للبواب أن يمسح السيارة وينظفها، فتحت باب الشقة واستقبلته:

- الحمد لله يا أحمد إنك وصلت في الوقت المناسب.

- لقد صممت على إنهاء الاجتماع حتى لا أتأخر عليك.

- حبيبـي يـا أحمد، لقـد جنبتني الحـرج، فالعائلة كلها سـتكون موجودة بالحفل وجميعهم سوف يسألون عنك.

- حالًا سأغير ملابسي ونذهب.

كان الحفـل رائعًا ومنظـمًا رغم كثرة عدد المدعويـن، التفت أحمد لزوجته وسألها متهكمًا:

- أتوقع أن يدخل علينا الآن رأفت الهجان الحقيقي بلحمه وشحمه.

- يا أخي قلت لك وجدي بك ترك المخابرات من زمان.

- الإتيكيت والرسميات تغلب على الحفل وقد تحرمك من الرقص معي.

- أحمد، اسكت من فضلك.

- سمعت أن الراقصة دينا ستحيي الحفل، استأذني منها وارقصي معها.

- غتت ودمك ثقيل.

- طيب ما رأيك في...؟

- أحمد، اسكت أرجوك.

شغل نفسه بالنظر إلى العروس وهي تجلس في «الكوشة» بجوار العريس والمطرب أمامهما يغني على إيقاع راقص ويدعو الحضور للتصفيق، حتى انتبه إلى سعاد تلكزه بكوعها وتسأله:

- ما لك.. سرحت وأنت بجانبي؟!

- هه، لا.. المطرب لم يعجبني.

- هذه مطربة والمطرب أنهى فقرته ومضى منذ فترة، واضح أنك لست معي.

- أنت السبب، كلما تحدثت إليك تطلبين مني أن أسكت.. ها هي نتيجة السكوت.

- إذن تكلم معي.

- فيم أتكلم، حددي الموضوع الذي يناسبك.

- أي شيء، المهم ألا نبدو متخاصمين هكذا.

- أتعرفين.. لقد انتابني شعور أن أزيح هذا العريس وأجلس مكانه.

- يا خبر أسود.. أتفكر بالزواج؟

- لا، إنها مجرد..

- بل تفكر وتتمنى من داخلك أن تجلس مكان العريس؟

- لا تفهميني غلط يا سوسو.

- أرجوك يا أحمد، تحسس كلامك وإلا فاصمت.

- نعم، السكوت أفضل، السكوت من ذهب.

- على الأقل لن أسمع منك ما يؤذي مشاعري.

- أيؤذيك أن أصارحك بها فكرت فيه؟

- أحمد، اسكت أرجوك.

- ها هي الراقصة قد وصلت.

ومع نهاية فقرتها انتهى الحفل ورجعا إلى البيت، هناك صدمها بإعلان رغبته في الزواج من امرأة أخرى، للحظة لم تستوعب كلامه، ولما انتبهت جن جنونها وصرخت ثائرة:

- طلقني يا أحمد؟

حاول أن يسترضيها إلا أنها أحست بإهانة بالغة وأن شرخًا عميقًا قد أصاب حياتها معه، لم تنم طوال الليل، انتفخت جفونها لكثرة البكاء، ومع إشراقة الصباح، اختمرت في ذهنها الفكرة، لن تكون لقمة طرية ولن تفرط أو تستسلم بسهولة، فهي تنحدر من عائلة كبيرة، ذات حسب ونسب، وتستطيع وقت اللزوم أن تستعين ببعض الشخصيات المهمة للضغط على

زوجها أو عقابه وتأديبه إذا لزم الأمر، ولكنها قبل أن تتخذ أي إجراء، يدفعها الفضول أن تتعرف على غريمتها ولا بأس من تهديدها وإظهار كارت إرهاب لها، لعلها تخاف وتنسحب من حياته، المهم ألا تستسلم وتتركه لواحدة من خاطفات الأزواج مثل هذه المدعوة بيلسان، غسلت وجهها ثم وضعت من الكريمات والبودرة والمكياج ما يداري آثار الحزن والإجهاد والبكاء طوال الليل، ارتدت ملابس الخروج ونزلت لتقود سيارتها متجهة إلى شركة زوجها، وضعت نظارة سوداء على عينيها ولفت إيشاربًا حول رأسها حتى لا يتعرف عليها موظف الاستعلامات ثم سألته:

- مدام بيلسان موجودة؟

- نعم يا فندم، أقول لها من حضرتك؟

- لا أرجوك، لا تحرق المفاجأة، قل لها إنسانة عزيزة عليك وكفى.

التزم الموظف بما قالته له، وبعد لحظات أقبلت بيلسان، فتأملتها سعاد بذهول وتمنت ألا تكون هي، إذ لم تتصور أبدًا أن تكون على هذا القدر من الجمال والحسن والفتنة والشياكة، وخطر لها أن هذه لو كانت هي بيلسان فلزوجها ألف عذر، حينئذ اقتربت منها بيلسان وسألتها بلطف:

- حضرتك؟

- واضح أنك نسيتيني.

- في الحقيقة..

- لا، لا.. تعالي.

قاطعتها سعاد وطوقتها بذراعها لتنتحي بها جانبًا وتهمس لها وهي تغمز نحو موظف الاستعلامات:

- أنا الدكتورة سعاد، أنا مدام أحمد مختار وأرجو أن تخرجي معي لخمس دقائق، فعندي كلام مهم يجب أن تسمعيه.

- أوكيه، تفضلي.

خرجت معها بيلسان بكل ثقة، وفي الشارع التفتت إليها وقالت بمودة:

- دكتورة سعاد، اسمحي لي أن أعزمك على فنجان شاي أو قهوة في أي مكان يعجبك.

- لا داعي، يمكننا أن نجلس في سيارتي ونتحدث.

- هذه أول مرة أتعرف بشخصية محترمة مثل حضرتك فاسمحي لي أن أقوم بالواجب.

- لا، من هذه الناحية، لقد قمت بالواجب وزيادة.

- منذ فترة وأنا أتوق لرؤيتك والاستماع إليك، تفضلي، يوجد كافيه قريب من هنا.

تعجبت سعاد من هدوء الأعصاب والثقة التي قابلتها بها بيلسان، وأخذت شعلة الغضب بداخلها تخبو وتهدأ قليلًا وهي تحدث نفسها:

- إما أنها خاطفة رجال على درجة عالية من التمكن وإما أنها تظنني ساذجة ويسهل الضحك عليَّ بكلمات معسولة، والله أعلم ماذا قال لها أحمد عني.

جلست قبالتها في ركن هادئ بالكافيه وطلبت القهوة ثم سألتها مباشرة:

- أبلغني أحمد أنكما اتفقتما على الزواج.

- حتى الآن هذه رغبته هو، أما أنا فلي شروط، أولها: أن تكوني موافقة.

- وهل تظنين أنني أو أية زوجة مثلي يمكن أن توافق على هدم بيتها وتسمح لامرأة أخرى أن تخطف منها زوجها؟

- أولًا، دعيني أتحفظ على كلمة تخطف، فأنا لم أطلب منه الزواج وليست لي رغبة في ذلك.

- ربما فتنه جمالك.

- دكتورة سعاد، انسي موضوع الزواج هذا، فأنا لن أتزوج أحمد.

- أهذا هروب من المواجهة؟

- لماذا أهرب، هل تحملين في حقيبتك زجاجة بها صودا كاوية وسوف تلقينها على وجهي للانتقام مني، بالعكس أنا أمد لك يدي بكل الحب والتعاطف معك كامرأة مثلي، فلنكن صديقتين، ولكي تطمئني أكثر اعلمي أنني صبئية.

- ماذا تقصدين؟

- عندنا في عقيدتنا الصابئية، نعتبر المرأة أكثر إنسانية وأرق عاطفة من الرجل لأنه خلق من طين، أما المرأة فأصلها حواء التي خلقت من ضلع آدم لذلك فهي أرق من آدم وأكثر منه عطفًا وحنانًا.

- ألست مصرية؟

- أنا مصرية من أصل عراقي.

- ولو كنت بالعراق ووجدت نفسك في موقفي هذا أكنت تقبلين أن تخطف امرأة أخرى زوجك؟

- بالتأكيد لن أقبل، وهذا حقك، صدقيني ما دمت رأيتك وسمعتك فلن أتزوج زوجك.

- أتمنى لو أصدقك.

- دكتورة سعاد، من الآخر، أنا امرأة لا تصلح للزواج.

- وأنت بهذا القدر من الجمال وتريدينني أن أصدق أنك لا تصلحين للزواج؟

- لأنني بكل بساطة امرأة مسكونة، أنا امرأة يسكنها الحنين، سواء الحنين للزوج الذي مات غدرًا بسبب رعونة وطيش سائق مقطورة سكير، أو الحنين للأهل والأحباب الذين شردتهم الحرب في العراق، أو الحنين للوطن الغالي الذي لم يعد وطنًا آمنًا ولن يرجع كما كان، الوطن الجميل مهد الطفولة والصبا وأرض الحب والذكريات الرائعة.

اغرورقت عينا بيلسان بالدموع، فمدت سعاد يدها وأمسكت أصابع بيلسان في مودة ومواساة وقالت لها:

- اعذريني، لم أتصور أبدًا أن هذا الحسن يخفي وراءه كل هذا الحزن النبيل.

- يا دكتورة سعاد، أنا امرأة تحولت حياتها إلى جحيم، ولولا أن الله منَّ عليَّ وألقى المحبة والحنان في قلب حماتي وحماي ما صمدت لكل المآسي والأحزان التي أصابتني.

- كان الله في عونك يا حبيبتي.

- بعد وفاة حاتم نذرت نفسي لطفلينا وقررت أن أكافح لأربيهما أحسن تربية وأجعلهما في الصورة التي كان يحلم بها حاتم، لذلك رفضت كل من

تقدموا للزواج بي وهم كثر وبعضهم من أقارب حاتم ولكني رفضت وأغلقت هذا الباب نهائيًا رغم ما أتعرض له من معاكسات ومضايقات، وعندما عرض أحمد بك عليَّ الزواج وجدته رجلًا محترمًا وسوف يحميني من الفتنة ومضايقات الرجال ويساعدني على تربية الطفلين بطريقة أفضل ورغم ذلك لم تكن بي رغبة للزواج ولم أتحمس ووضعت شروطًا صعبة أولها أن توافقي، ولقائي بك اليوم قد أراحني وأزال عني الحرج فشكرًا لك.

- بيلسان، أنت امرأة نادرة، وأنا يشرفني أن تكوني صديقتي.

طوال الطريق إلى الجامعة، استغرقها التفكير في تلك المرأة الحسناء المتواضعة، التي سحرتها بإنسانيتها وحزنها النبيل، شعرت من أعماقها بالتماس العذر لزوجها، فأي رجل هذا الذي بمقدوره أن يقاوم إغراء كل هذا الجمال، جمال الشكل والروح معًا، وفي سرها تمتمت:

- والله أحمد معذور.

عندما وصلت إلى مكتبها، أغلقت الباب ثم طلبت حماتها:

- صباح الخير يا طنط.

- أهلا حبيبتي سوسو، كيف حالك وحال أحمد؟

أدركت من سؤال حماتها أن أحمد لم يذهب إلى بيت أمه فردت عليها بشكل طبيعي واستدركت:

- الحمد لله يا طنط، نحن بخير، أريد أن أطمئن عليك.

- أنا بخير يا حبيبتي، لماذا لا تأتين مع أحمد الليلة ونسهر معًا؟

- بإذن الله يا طنط فأنا مشتاقة لرؤيتك.

- وأنا أيضًا.

أنهت المكالمة وهي تفكر:

- لم يبت عند أمه ليلة البارحة فأين ذهب؟

طلبته وسألته بحدة:

- أحمد أين أنت؟

- في مكتبي يا سوسو.

- لم تبت عند طنط؟

- فضلت ألا أطلع أحدًا على مشاكلنا.

- وأين نمت؟

- نزلت في غرفة بأحد الفنادق.

- عيب يا أحمد، ارجع بيتك.

- من أجل الحب والعشرة يجب أن يأخذ كل منا فرصته للتفكير واتخاذ القرار الذي يناسبه.

- عد إلى بيتك وفكر في الأمر كرجل عاقل رشيد.

- وأنا أيضًا أوجه لك الدعوة للتفكير والإجابة عن سؤال: هل حبي لك يحرمني من حقي في الإنجاب؟

- ارجع إلى البيت ولنفكر معًا في الوصول إلى حل.

عادت الدكتورة سعاد، فرأت حقيبته، فتحت غرفة النوم فوجدته مستغرقًا في نوم عميق، أغلقت الباب بهدوء، أدركت أنه لم ينم ليلة البارحة، فهي تعرف عنه أنه إذا غير مكان نومه، يصاب بالأرق ويستعصي عليه النوم،

شـغلت نفسـها بإعداد الطعام، وحينما قارب على النضج فتحت التليفزيون ورفعـت صوتـه، بعد لحظات سـمعته يفتح باب غرفة النـوم وخرج فحياها وجلس، سألته:

- ألست جائعًا؟

- جدًّا.

- حالًا ستكون السفرة جاهزة.

قـام فتوضأ وصـلى ودعا الله أن يلهمهـا الصواب ويهديها لمـا فيه الخير له ولها، جلس معها على المائدة وأعجبه الطعام فقال:

- إنك تفهمين ذوقي في الطعام جيدًا، كأنك تقرئين ما تهفو إليه نفسي.

- كيف لا أفهمك بعد هذه العشرة الحلوة والسـنين الرائعة التي عشـتها معك؟

- وأنا دائمًا أراهن على ذكائك وفهمك الصحيح للأمور.

- ميرسي.. لكن قل لي: من أين أتيت بهذه «الموزة» العراقية؟

- بيلسان؟ هل رأيتها؟

- طبعًا.. لقد شوقني كلامك عنها.

- متى رأيتها؟ وأين؟

- أخذتها من الشركة وجلسنا معًا في كافيه قريب.

- وماذا قلت لها؟

- قلت ما تقوله أية زوجة محبة لزوجها.

- هل أسأت إليها أو جرحت مشاعرها؟

- وهل تعرف عني القسوة أو إساءة الأدب؟

- بالعكس، لكني أخشى أن....

- اطمئن، صرنا صديقتين.

- كيف؟

- وجدتها عكس ما كنت أظن، وهي متعاطفة معي كامرأة مثلها.

- إذن قمت بتحريضها على رفض الزواج بي.

- أبلغتها أني غير موافقة، فاستجابت وأعلنت رفضها الزواج بك.

- وهل ارتحت الآن؟

- أتريد الصدق؟ لقد غيرت موقفي وأراني الآن ميالة للموافقة على زواجك بها.

- أحقًّا يا سوسو أنت موافقة؟

- بشرط أن تعطيني ضمانات ألا تأخذك مني وأن تكون عادلًا بيننا؟

- أقسم لك...

- لا.. أقصد أن تعطيني هي تلك الضمانات فأنا أصدقها وأثق بها..

- يا اه... إلى هذه الدرجة اقتنعت بها؟

- ربما أرسل الله لك هذه المرأة الطيبة مكافأة لك على صبرك معي ومكافأة لي على إيماني بقضاء الله في ألا يكون لي منك ولد.

- سوسو..أرجو أن تصدقيني، والله أقولها من عقلي وقلبي إن كانت بيلسان فائقة الحسن والجمال فأنت بعقلك وحكمتك أروع وأجمل من كل نساء الأرض.

قام يحضنها ويقبلها فنظرت إليه بحب وقالت:

- أحمد، لن أخذلك، ومثلما أقنعت بيلسان برفض الزواج منك سأقنعها أن تتزوجك.

- حقًّا يا سوسو؟

- أشعر أنها ستكون أختًا لي، وأن الطفل الذي ستنجبه لك سيكون ابني مثلما هو ابنها.

- كم أنت رائعة يا حبيبتي؟

ضغطت أزرار التليفون، لتطلب بيلسان وتخبرها بموافقتها إلا أنها لم ترد وكررت سعاد المحاولة عدة مرات دون جدوى وحينئذ تطوع أحمد وقال:

- إنها تعيش مع طفليها وحماها وحماتها وقد لا يكون الوقت مناسبًا لها للرد عليك.

- وقد تكون قد قلبت الصفحة كلها، وتريد أن تبعد عنا خوفًا من المشاكل.

- لو صح ذلك فقد تترك العمل في الشركة.

- لكني لن أيئس، وبعد فترة سأتصل بها.

- ما رأيك في أن نذهب لزيارتها في بيتها.

- لا.. قد تكون مفاجأة سخيفة.

- اسمعيني، إن حماها صديقي وسأجعله هو الذي يدعونا للزيارة.

- لا بأس.

- وهنـاك يمكـن أن تنتحـي بهـا جانبًـا وتهمـسي في أذنهـا أنـك غـيرت موقفك.

- نعم، هذه فكرة صائبة.

قطـع حبـل الذكريـات صوت فرملـة السـيارة وكادت ترتطـم بالزجاج الأمامي، انتبهت إلى أن صدامًا وشيكًا كاد يحدث بين سيارتها والسيارة التي تسبقها، صاحت بعصبية ونرفزة:

- ألا تنتبه يا أحمد؟ لم العجلة؟ ألم تبلغك أنها وصلت إلى بيتها؟

- لا بأس، عذرًا، عذرًا.

- أراك متوترًا؟

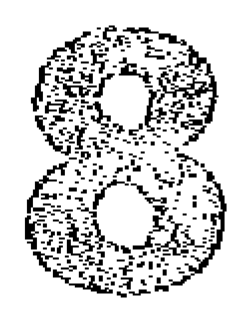
- ثماني سنوات ونحن نعتبر أمجد وروان طفلينا ثم فجأة تظهر أمهما!

- إرادة الله ويكفي أننا عشنا هذا الوهم الجميل ثماني سنوات.

- عودتها بعد ما رأيته بعيني من قبيل المعجزات.

- تأكـد أن مشـاعر أمجـد وروان وحبهـما لنا لـن يضعف أو يتأثـر بعودة بيلسان.

- أتمنى ذلك.



أعادت المحمول للسائق وشكرته، ظلت تنظر للشوارع بارتياح وفرح وهي غير مصدقة أنها نجت من الجحيم وعادت لأسرتها وبيتها فرددت في سرها:

- الحمد لله وأشهد أن لا إله إلا أنت الواحد الأحد، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله وأني من المسلمين الموحدين.

أشار سائق التاكسي بيده قائلًا:

- يا مدام، هذا شارع جسر السويس فأين ستنزلين؟

- بعد، بعد... بيتي قبالة هذا المطعم، هناك.

نزلت عند البيت وطلبت من السائق أن ينتظرها حتى ترجع إليه بالأجرة، ضغطت زر الجرس وهي تدعو أن يكون أحد أفراد أسرتها بالبيت، مرت لحظات يملؤها القلق ثم فتح الباب وظهرت منه امرأة لا تعرفها وسألتها بخشونة:

- ماذا تريدين؟

- من أنت؟

- وما شأنك؟

- أنا صاحبة هذا البيت.. فمن أنت؟

- لا، أنت نصابة، فصاحبة هذا البيت ماتت منذ سنوات.

- أليس هذا بيت السيد عبد العظيم الرويني؟

- نعم وهو ليس موجودًا الآن؟

- وأين أمجد وروان؟

- لا أحد هنا الآن.

- أين المربية فضيلة؟

- سمعت أنها عادت إلى بلدها الفلبين منذ سنوات قبل استلامي العمل هنا.

- ومن أتى بك؟

- أحمد بك مختار.

- اتصلي به فورًا.

أخرجت السيدة هاتفها وتحدثت بنبرة تشكك:

- أحمد بك، هنا سيدة تدعي أنها صاحبة البيت، نعم.. ما اسمك؟

- أنا بيلسان.

- بيلسان يا أحمد بك، حاضر، حاضر.

أغلقت الهاتف وأفسحت لها لتدخل:

- تفضلي يا هانم، أنا آسفة جدًّا.

- لا عليك، أريد منك خدمة.

- تحت أمرك.

- سائق التاكسي ينتظر أجرته وليس معي نقود.

- فهمت، تفضلي وسوف أحاسبه.

دخلت بيلسان بيتها بعد غيبة كأنها الدهر كله، وكم كان إحساسها رائعًا بالأمن كأنها خرجت توًّا من بحر الظلمات، تنفست بعمق وملأت صدرها بالهواء وهي تخطو داخل البيت، وتتأمل كل تفاصيله بشوق ولهفة وحب، لمحت المشاية التي اشتراها أحمد لحماتها ليجعلها فرصة للتقرب إليها ما زالت قائمة في الفراندة كما هي، وضعت يدها عليها ورجعت بذاكرتها إلى تلك الليلة.

■■■

في عيادة طبيب العظام كانت بيلسان تجلس إلى جوار حماتها التي تنتظر دورها للدخول، أخرجت بيلسان الموبايل من حقيبتها وطلبت الرقم الذي أعطته لها عاتكة، توقعت أن تسمع إشارة تخبرها أنه مغلق أو خارج نطاق الخدمة كالمرات السابقة، ولكنها فوجئت به يرن فانتظرت يملؤها الأمل حتى سمعت صوتًا عراقيًّا يبادرها:

- مرحبًا.

- أنا بيلسان أخت عدنان كمال عبد الواحد.

بمجرد أن سمع اسمها أغلق الخط، فشعرت بمزيج من الإحباط والحيرة والغضب، طلبت الرقم مرة أخرى فلم يرد، وكررت المحاولة عدة مرات حتى جاءها صوت الإشارة يخبرها أن (الهاتف مغلق الآن). تملكها الغيظ وسيطرت عليها فكرة أن أخاها قد أصابه مكروه وأن الذي رد عليها بـ(مرحبًا) يعرف أخاها ويخشى أن يبلغها بما حدث له أو أنه يضمر له الكراهية فلم يتحمل سماع اسمه. حاولت أن تقاوم ظنونها السيئة حتى انتشلها صوت الممرضة تنادي اسم حماتها التي حان دورها للدخول إلى الطبيب فقامت تسندها ودخلا إلى غرفة الكشف.

وحينما رجعا إلى البيت، دخلت بيلسان تتأبط ذراع حماتها فسمعت صوت أحمد وفوجئت بأنه قد اشترى لحماتها مشاية، أدركت أنه يحاول أن يتسلل إلى حياتها العائلية ويحاصرها لتوافق على الزواج منه، لكنها آثرت ألا تقول شيئًا يكشف حقيقة نواياه أمامهم وأضمرت أن ترد له ثمن هذا الجهاز حتى لا يظن أنه يكسر عينها، كبتت غيظها ورحبت به كما شكرته على المشاية ثم طوت شهادة الضمان ودستها في جيبها، دخلت غرفة نومها، أخرجت شهادة الضمان، بحثت فيها عن تليفون البائع، طلبت الرقم وسألت عن ثمن المشاية التي اشتراها الأستاذ أحمد سمير مختار منذ ساعات ثم شكرت المتحدث وأغلقت التليفون، فتحت الدولاب، تناولت ظرفًا منتفخًا، قالت لنفسها:

– قسط مدرسة الأولاد يمكنه أن ينتظر، أما أحمد فلن يكسر عيني أبدًا.

عدت ثلاثة آلاف جنيه، وضعتها في ظرف، كتبت عليه:

مع امتناني العظيم وجزيل شكري والدك: الحاج عبد العظيم الرويني وكيل وزارة التربية والتعليم سابقًا.

أغلقت الظرف، وضعته في جيبها وانشغلت بعملها في المطبخ بعد العشاء، لحقت بيلسان «بحماها» قبل أن يدخل الحمام ليغسل يديه، دست الظرف في جيبه هامسة:

– بابا، هذا الظرف به ثمن المشاية، يجب أن تصر على إعطائه للأستاذ أحمد، ولكن لا تعطه له إلا وأنت توصله إلى سيارته.

– مفهوم، مفهوم.

اطمأنت بيلسان وهي ترقبهما من خلف ستارة النافذة وابتسمت وهي ترى أحمد يأخذ الظرف ويصافح العجوز ثم ينطلق بسيارته، قابلت العجوز عند السلم فبادرها:

- بيلسان، ألن يربك ميزانيتك هذا المبلغ؟

- لا يا بابا، مستورة والحمد لله.

صعدت السلم قفزًا برشاقة الغزلان، ثم جلست في غرفة المعيشة وطلبت رقمًا على الموبايل:

- عاتكة، حبيبتي مساء الخير، كيف حالك وزوجك قصي؟

- الحمد لله، كيف حالك أنت يا بيلسان؟

- عاتكة، لقد طلبت الرقم الذي أخذته منك، فهل أجد لديك تفسيرًا لما حدث؟

- وماذا حدث؟

- بمجرد أن سمع اسمي أغلق الخط، وحاولت أن أطلبه بعد ذلك عدة مرات فلم يرد ثم أغلق الهاتف تمامًا.

- حبيبتي، لا تقلقي، فمن يعمل متخفيًا كعضو في مقاومة المحتل لا بد أن يرتاب فيمن يتصل به هكذا دون سابق معرفة، خاصة لو كان مكلفًا بمهمة سرية، طبيعي أن يحتاط ويغلق الخط حتى لا ينكشف أمره.

- لكني أخبرته أنني أخت عدنان كمال عبد الواحد.

- ومن أدراه أنك لا تنتحلين هذه الصفة للإيقاع به؟

- إلى هذه الدرجة؟

- نعم، وليس معنى هروبه من الاتصال بك أنه لا يعرف أخاك، ولكن الحذر مطلوب وقد تفاجئين بأنه هو الذي يتصل بك إذا تأكد من شخصيتك وكانت هناك ضرورة لذلك.

- يا ألله.. كنت أتمنى أن يقول لي كلمة واحدة تطمئنني على عدنان.

- اطمئني يا حبيبتي، وعدني قصي أن يكلف بعض أقاربه بالبحث عن أخيك وإبلاغك بأخباره.

- أشكرك عاتكة، أبلغي سلامي وتحياتي لقصي.

في هدأة الليل وبعد أن استقر أفراد أسرتها كل في سريره، وخيم الهدوء على البيت، جلست أمام الكمبيوتر، بدأت تتصفح المواقع الإخبارية وحبست أنفاسها وهي تتابع ذلك الهجوم الوحشي الغادر لقوات المارينز الأمريكية مصحوبة بسفاحين مرتزقة جندتهم شركة «بلاك ووتر» يقتحمون بالدبابات والعربات المصفحة مدينة الفالوجة، مدينة الحلم الجميل، وذكريات الصبا والطفولة، حيث يعيش فيها أخوال بيلسان وعشيرة أمها، واعتصر قلبها الألم وهي تشاهد جحافل الغزاة يهاجمون المدينة النائمة، فيطلقون الصواريخ على بيوتها الآمنة، ثم يحصدون بالرشاشات أرواح النساء والشيوخ والأطفال وهم يخرجون من بيوتهم مذعورين، يتساقطون وتسيل الدماء أنهارًا في الشوارع ومن تكتب له النجاة ويلوذ بالفرار يدوس فوق القتلى والجرحى الذين سقطوا يصرخون وينزفون بلا رحمة، صرخت بيلسان وانفجرت بالبكاء:

- والله هذا كفر، ما ذنب هؤلاء الأبرياء؟ ماذا فعلوا لكم يا متوحشون يا كفرة؟!

فجأة انتبهت إلى طفلها أمجد، يخرج من غرفته على صوت نحيب أمه، فيسألها بخوف:

- ماذا بك يا ماما؟

مسحت دموعها وهي تغلق الكمبيوتر، ثم احتضنت أمجد، وحاولت أن تطمئنه:

- لا شيء يا حبيبي، اطمئن، الأمريكان الملاعين يقتلون أهلي في العراق، أليس هذا شيئًا محزنًا؟

- الأمريكان أشرار.

- نعم، سيرينا الله فيهم يومًا.. فالله يمهل ولا يهمل، وسينصرنا الله عليهم.

- لا تبك يا ماما.

- اطمئن يا حبيبي، سأنام.. هيا، ادخل أنت أيضًا وأكمل نومك.. هيا.

- تصبحين على خير.

تظاهرت بدخول غرفتها لتنام وانتظرت حتى استغرق طفلها في النوم، ثم عاودت تحريك فأرة الكمبيوتر، والجري بمؤشر البحث بين المواقع الإخبارية، حاولت أن تكتم انفعالها وهي تتابع صور الدمار والخراب وهدم البيوت الآمنة وأصوات القنابل والطلقات والانفجارات وسحب الدخان التي ملأت سماء الفالوجة، مناظر مرعبة لأشلاء وجثث القتلى ملقاة في الشوارع لتتغذى عليها الضواري والكلاب والطيور الجارحة، بكت بيلسان في صمت ومزق جوارحها ألم الحزن على ما أصاب الأهل والأحباب في تلك الحرب الغادرة غير المتكافئة، طافت بعقلها أفكار تموج بالأسى والحزن على ما وصل إليه العراق من خراب وتدمير وسلب ونهب وتمزيق، تنهدت وزفرت هواء ساخنًا وهي تعزي نفسها:

- لن يرجع العراق الذي عرفناه أبدًا. هبت من الشباك نسمة باردة، حركت الستارة، ثم ارتفع صوت المؤذن في مسجد قريب، يستنهض النائمين ويحثهم بأن الصلاةَ خير من النوم، رددت بيلسان معه الأذان كاملًا ثم رفعت يديها بالدعاء:

- اللهم ارفع غضبك ومقتك عنا يا رب العالمين.

قامت تمشي بضعف وإعياء، توضأت ثم استقبلت القبلة وصلت بخشوع، ابتهلت إلى الله بخالص الدعاء، دخلت غرفتها، تمددت في السرير ونامت.

■■■

تذكرت بيلسان يومًا بدأ بصباح كئيب حينما زارتها في الشركة الدكتورة سعاد واختلت بها في كافيه قريب لتحذرها من خطف زوجها وهدم بيتها وكان هذا آخر ما تتوقعه بيلسان فردت بصدق أنها آخر امرأة في العالم يمكن أن تتزوج أحمد ونجحت في نزع فتيل الأزمة، إلا أن المواجهة تركت في نفسها أثرًا سلبيًّا فلم تجد لديها رغبة في العودة إلى العمل ومواجهة أحمد الذي أصبح واضحًا أنه على خلاف مع زوجته الرافضة تمامًا لزواجه من امرأة أخرى، ولم تكن راغبة في العودة مبكرًا للبيت، ركبت سيارتها وانطلقت بها إلى كافيه «الكرخ»، لم يكن حاج غفور موجودًا، جلست قرب الباب وطلبت فنجانًا من القهوة ثم سألت الجرسون:

- ألم يأت بعد حاج غفور؟

- موجود يا أفندم، لكنه ذهب لشراء بعض احتياجات الكافيه أتأمرين بأية خدمة؟

- لا.. ميرسي.

ارتشفت القهوة وهي تفكر فيما إذا كان يجب عليها الانقطاع عن العمل. لكنها متأكدة أن أحمد بك سيتصل بها وحتى لو امتنعت عن الرد عليه فهو يعرف البيت وقد يأتي للسؤال عنها وبما أنها لا تريد الآن مشاركة «حماها» وحماتها في مثل هذا الموضوع الشخصي جدًّا، إذن عليها أن ترجع إلى العمل

وتواجه أحمد بأنه لم يتوافق مع زوجته، وبالتالي لم يتحقق الشرط الذي وضعته للموافقة على الزواج منه وهو موافقة زوجته..

وبينما هي تفكر فيما ستقوله في مواجهة أحمد بك، رن جرس التليفون، ظنته يتصل بها، نظرت في الشاشة فرأت رقمًا دوليًّا، إذن هي مكالمة من خارج مصر، ردت بلهفة:

- ألو.

- بيلسان حبيبتي، كيف حالك؟

- من؟ عدنان؟ عدنان أين أنت؟

- أنا بالعراق يا حبيبتي، اطمئني.

- وزوجتك والأولاد؟

- كلنا بخير، لكن سهيلة والأولاد انتقلوا إلى الكرادة، يعيشون مع خالي.

- وأنت يا عدنان؟

- أزورهم كلما تيسر لي نزول بغداد.

- ألم تقل إنك بالعراق؟

- اطمئني، أنا ورفاقي نتحرك في كل مدن العراق ونطارد الأمريكان لنخرجهم من وطننا.

- وكيف أراك يا عدنان، أتمنى لو أدفع عمري كله لكي أراك يا حبيبي.

- ليس الآن يا حبيبتي، اصبري، والآن كيف حالك أنت وزوجك والأولاد؟

- لقد توفي حاتم يا عدنان.

- يا ألله.! وأنت كيف تعيشين أنت وأولادك؟

- أهل حاتم يحبونني جدًّا يا عدنان، المهم قل لي كيف أراك؟

- هذا صعب جدًّا الآن يا بيلسان.

- لا.. سوف أجيء وأتصل بك، لا بد أن أراك.

- لا يا حبيبتي، هناك خطورة على حياتك.

- لن يمنعني شيء من رؤيتك حتى لو كان آخر يوم في عمري.

- بيلسان، لا داعي فأولادك بحاجة إليك.

- أولادي بخير مع أهلهم هنا في مصر، أما أنا فقلبي يحترق شوقًا ولهفة إلى رؤيتك يا غالي.

- أما زلت تحتفظين بمفتاح بيتنا؟

- نعم.

- إن تيسر لك المجيء فانتظري اكتمال القمر.

انتهت المكالمة لتنظر بيلسان في التليفون الذي تمسكه غير مصدقة كأنها استيقظت من حلم جميل، تحاول أن تستعيد تفاصيله بقدر كبير من الابتهاج واللذة، ثم قامت وهي تضع ورقة نقدية تحت طرف الفنجان، أقبل عليها الجرسون فشكرته وطلبت منه أن يبلغ تحياتها للحاج غفور ثم خرجت وهي عازمة على السفر، انطلقت بسيارتها وهي تشعر أنها أخف من ريشة تطوحها رياح الحنين لتحوم وتدور وتستقر ثانية في حضن الوطن، تملكتها رغبة جامحة في السفر، ولقاء أخيها ومحاولة جذبه للرحيل إلى مصر بإقناع زوجته

أن تسافر معها هي والأولاد ويأتوا للعيش معها في مصر، وبذلك ربما تنجح في التأثير عليه وإغرائه بالمجيء، إذن لا بد من سفرها سريعًا إلى بغداد.

كانت تدرك أن عليها أولًا إقناع طفليها بأهمية سفرها وتركهما لمدة أسبوع على الأقل برفقة المربية فضيلة وفي رعاية الجد والجدة اللذين تثق تمامًا أنهما لن يمانعا في سفرها احترامًا لشوقها ولهفتها اللذين لا يخفيان عليهما لرؤية أخيها الوحيد عدنان؛ لذلك انطلقت مسرعة إلى البيت.

■■■

جلست باسترخاء على كنبة الأنتريه، وعلى جانبيها أمجد وروان، يتصفحان معها ألبوم الصور، فتشير لهما على صور الخال عدنان وتجتر ذكرياتها الجميلة معه وتحكي عنه: كم هو حنون وشجاع ومثقف، سألها أمجد ببراءة الأطفال:

- لماذا لا يأتي ويزورنا؟

- لا يقدر على المجيء إلينا يا أمجد.

- قولي له إننا نحبه ونريد أن نراه.

- هو أيضًا يحبنا ولكنه غير قادر على السفر الآن.

- ألا يملك سيارة؟

قالتها روان بسذاجة الأطفال، فردت عليها بيلسان وهي تبتسم وتعدل خصلات شعر صغيرتها بأطراف أصابعها:

- لأنه يحارب الأعداء يا روان.

- الأعداء؟

- نعـم، فالأمريكان يطمعون في بترول العـراق ويريدون احتلاله لسرقة خيراته.

- الأمريكان لصوص أشرار.

قالها أمجد بعفوية وحماس، فأكملت بيلسان:

- خالكـما عدنـان رجل شـجاع يحب وطنـه، فحمل سـلاحه وانضم إلى المحاربين ليضربوا الأمريكان ويطردوهم من العراق.

- وهل يستطيع طردهم يا ماما؟

- بإذن الله، فهو على حق والله ينصر أصحاب الحق دائمًا.

- عندما أكبر سأذهب إلى خالي عدنان وأضرب الأمريكان معه.

- يا اااه.. عندما تكبر يا أمجد سيكون خالك ورفاقه قد طردوا الأمريكان، ويكون العراق قد عاد وطنًا جميلًا كما كان.

- أنا أحب خالي (عدنان) يا ماما.

- وأنا أيضًا أحبه.

- وأنا سأذهب إليه وأبلغه أنكما تحبانه وتريدان رؤيته.

- خذينا معك يا ماما.

- الصغار لا يسمح لهم بدخول بلد فيها حرب، ولذلك سأذهب وحدي هذه المرة ولن أغيب عنكما.

- وهل سيأتي معك خالي عدنان؟

- سأذهب إليه لكي أقنعه بالمجيء معي هو وزوجته وأولاده الصغار.

- ألديه أطفال مثلنا؟

- نعم وسوف تحبونهم جدًّا وتلعبون معهم.

وظلت تتحدث إليهما وتقنعهما بأهمية سفرها للعراق وفضيلة تجلس على مقربة منهما تتابع الحوار وتشفق على بيلسان مما هي مقدمة عليه، فجأة سمعت حماها يطرق الباب ويناديها، فقامت تستقبله:

- تفضل يا بابا.

- جدو، جدو حبيبي.

- تعال يا جدو...

تعلق الطفلان به، فقبلهما وجلس وهما في حضنه ثم التفت إلى بيلسان وقال لها:

- أحمد بك حدثني الآن ويريد أن يزورنا هو وزوجته.

- وماذا قلت له؟

- طبعًا، قلت له: على الرحب والسعة، تفضلا.

- يا اله.. أهذا وقته؟!

- ظننته يريد أن يودعك هو وزوجته.. يُشْكَر.

- أنا أصلًا لم أخبره بسفري للعراق.

- أنا أيضًا لم أخبره لأني اعتقدت أنه يعرف.

- المشكلة أن الوقت يمر وكنت أنوي الذهاب إلى كافيه الكرخ لوداع حاج غفور وصديقتي عاتكة وزوجها قصي.

- ما زال عندك وقت، اذهبي الآن أو بعد أن ينصرف أحمد بك وزوجته.

- لا، سأطلب من عاتكة أن تأتي إلى هنا حتى لا أرهق نفسي أكثر مما أحتمل.

- طيب، إن كان يلزمك شيء، فسأخرج وأشتريه.

- لا يا بابا، ابقِ أنت وسوف أنزل أنا وأشتري بعض المعجنات المالحة والحلوى وكمية من العصير.. يبدو أنها ستكون سهرة لنا ولكما الليلة.

- لا تحملي همي، المهم راحتك أنت والأولاد.

- بارك الله فيك وأطال لنا عمرك.

لم تشعر بالتوتر ورتبت كل شيء بروية وهدوء فتحدثت إلى صديقتها عاتكة واتفقت معها أن يكون اللقاء هنا في بيتها بدلًا من «كافيه الكرخ» ولم تنس أن تتصل بحاج غفور وتبلغه بسفرها إلى بغداد وتودعه، فدعا متمنيًا لها السلامة.

اصطحبت فضيلة وهي تتسوق ما تحتاج إليه، ثم عادت فبدلت ملابسها وتزينت وارتدت فستان سهرة بدت فيه كملكة متوجة، تشع بالبهجة والسعادة وكان أحمد وزوجته هما أول من وصل من ضيوفها وشاركها حماها وحماتها في الترحيب بهما ولكن بعد لحظات، كشفت الدكتورة سعاد عن انبهارها الشديد بأمجد وأخته روان فتركت الجميع وجلست تتحدث إليهما بتلقائية وحب حقيقي ولم تشعر بالحرج وهي تستجيب لهما؛ يجذبانها لتدخل غرفتهما فيعرضا عليها ما قاما برسمه على شاشة الكمبيوتر، شعر أحمد بالحرج فحاول أن يتحفظ على دخولها معهما أو يناديها ولكن بيلسان ابتسمت وأشارت له أن يتركها معهما لأن ذلك يسعدها ويطمئنها أن طفليها محبوبان ومقبولان من الآخرين وكانت في قرارة نفسها تدرك وتقدر أن

الدكتورة سعاد تعاني من نقص الحرمان من الإنجاب، وجميل منها ألا تنفر من الطفلين بل تقبل عليهما بكل هذا الحب والولع بالتقرب إليهما.

حينما حان وقت الطعام، دخلت بيلسان على استحياء لتدعو ضيفتها وتخيرها إن كانت تريد تناول الطعام معهم أم مع الأولاد؟

فابتسمت الدكتورة سعاد بشيء من الحرج وقالت بصدق:

- حقيقي أنا مسحورة بأمجد وروان ولا أريد أن أفارقهما، بارك الله لك فيهما.

- ميرسي يا حبيبتي، بارك الله فيك.

وانتحت سعاد جانبًا لتميل على بيلسان وتهمس في أذنها:

- على فكرة، جئت خصيصًا لكي أبلغك أنني غيرت رأيي بعد لقائي بك وأوافق على زواجك من أحمد لأنك ستكونين أختًا لي.

- ميرسي على شعورك الجميل وأنا فعلًا أختك، ولكن انسي موضوع الزواج، فهذا ليس أوانه، أنا مسافرة صباح الغد إلى بغداد.

- كيف وبها حرب؟

- كنت سأجن أو تصيبني لوثة بسبب خوفي على أخي الوحيد عدنان واليوم تلقيت منه اتصالًا وعرفت أنه ما زال بالعراق فقررت السفر للقائه.

- والأولاد؟

- سأتركهما في رعاية جدهما وجدتهما وأيضًا المربية فضيلة ستقدم لهما كل ما يحتاجانه، اتفقت معها على كل شيء.

- ومتى سترجعين؟

- أسبوع على الأكثر.

- أدعو الله أن يحفظك وترجعي لنا ولطفليك الرائعين بألف ألف سلامة.

- ميرسي، تفضلي، يا ااه، يبدو أن صديقتي عاتكة قد وصلت.

كان العجوز قد خرج لاستقبال عاتكة وزوجها قصي فلحقت به بيلسان، وقامت بتعريف كل الضيوف بعضهم ببعض ثم بدأت تقدم للجميع واجب الضيافة وانخرطوا في حوار حميمي دافئ طاف بهم حول المشاغل والهموم والأعمال وما يجري حولهم هنا وفي العراق ولم يخف أي منهم جزعه وخوفه على بيلسان من رحلتها إلى بغداد المحفوفة بالمخاطر.

■■■

وقفت المربية الجديدة تتأمل بيلسان التي بدت شاردة الذهن تنظر للاشيء وتفكر بعمق، سألتها باستغراب:

- سيدتي هل أنت بخير؟

- هه.. لم أتشرف باسمك؟

- أنا كوثر فهمي والجميع هنا ينادونني بكوكو.

- أهلًا بك، اعذريني إن كنت أصاب أحيانًا بحالة شرود أو سرحان، فهذا من الأهوال والمصاعب التي مررت بها.

- كان الله في عونك وحمدًا لله على سلامتك.

- اسمحي لي أن أصعد لأبدل ملابسي.

- خذي راحتك، تفضلي.

صعدت درجات السلم ببطء كأنها تتعرف على المسافات لأول مرة ثم دخلت شقتها فوجدتها نظيفة وبها لمسات جديدة تدل على رقي ذوق المربية

الجديـدة، أو ربما تـدل على نضج طفليها أمجـد وروان، رأت منظرها في المرآة فتعجبت من شـكلها المضحك في تلك الملابس غير المتناسـقة وغلبت عليها نوبـة من الضحك، سـارعت بخلـع الملابس وتناولت من الدولاب فسـتانًا محببًـا إليهـا، ارتدتـه وتعطرت، ثم لفـت نظرها كتـاب ملقى عـلى المنضدة، تناولته، قرأت عليه اسم ابنها: أمجد حاتم عبد العظيم الرويني.

ابتسمت وقالت: ما شاء الله، أمجد في أولى هندسة قسم إلكترونيات.

نزلت السلم بسرعة وهي تنادي:

- كوكو.. كوكو.

- نعم يا سيدتي.

- أين أمجد وروان وبابا وماما؟

- روان اصطحبت جدها وجدتها إلى عيادة العظام ليأخذ كل منهما جلسة كهرباء على عموده الفقري، وأمجد إما أن يكون في الجامعة أو في الشركة أو في الحزب.

- أهو طالب أم يعمل؟

- هو طالب ويعمل في الشركة مع أحمد بك ويمارس نشاطًا حزبيًا.

- وهل يجد وقتًا لكل هذا؟

- بسم الله ما شاء الله، أمجد شاب منظم جدًا.

- الحمد لله، عوضني الله به عن أبيه المهندس حاتم.

- أمجد حاتم اسم مشهور كأحد ثوار 25 يناير.

- رأيت صورته اليوم في الجريدة.

- نعم، فهو ناشط سياسي وله صفحة مهمة على الفيس بوك ويجرون معه أحاديث في الإذاعة والقنوات الفضائية والصحف والمجلات.

في تلك اللحظة رن جرس الباب وأسرعت المربية لفتحه والترحيب بالدكتورة سعاد وأحمد، فجرت إليهما بيلسان تصافحهما بحرارة وتعانق سعاد بحميمية صادقة ثم قالت:

- مهما شكرتكما فلن أفي بما تستحقانه وأدعو الله العزيز القدير أن يجزيكما خير الجزاء عما قمتما به لمساعدتي ورعاية طفليَّ أمجد وروان طوال سنوات محنتي.

- بيلسان هانم، أقسم بالله إنني شعرت كأن روحي قد ردت إليَّ عندما سمعت صوتك وعلمت أنك ما زلت على قيد الحياة فهذه أكبر نعمة وأفضل جزاء تلقيناه أنا وسعاد من الله عز وجل أن مَنَّ علينا برؤيتك مرة ثانية.

- صدقني لا أجد من الكلمات ما يعبر عن امتناني وتقديري وحبي لكما.

- أنت أخت لي يا بيلسان.

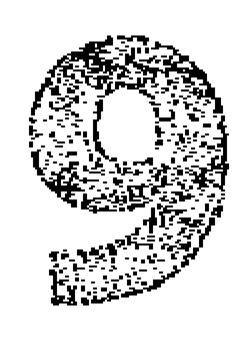
قالتها سعاد بصدق فقامت بيلسان تحضنها وتقبلها ثانية.. وقال أحمد:

- لكن رحلتك إلى بغداد فاجأتنا، وحتى عندما لحقت بك وخلصتك من السجن أول مرة كانت عندي أسئلة كثيرة، فهيا احكي لنا ماذا جرى هناك وأدى بك إلى تلك الأحداث المأساوية؟

تنهدت بيلسان وقالت:

- يا اااه... سؤالك هذا أعادني إلى اللحظة التي وطئت فيها قدماي أرض بغداد منذ ثماني سنوات.

■■■



في ساحة العلاوي بوسط بغداد، توقفت الحافلة بعد رحلة طويلة شاقة، تنفست بيلسان الصعداء، وشكرت الله على وصولها بالسلامة وأن الحافلة لم تقصف بنيران الأمريكان كما فعلوا متعمدين في مرات سابقة ثم يعلنون كذبًا أن الحافلة كانت تقل محاربين من بقايا حزب البعث وأنصار صدام حسين، وكانت طوال الطريق تسمع من المرافقين حكايات مروعة عما تقوم به القوات الأمريكية من اعتداء سافر وقتل للأبرياء برعونة ووحشية سواء في القرى والمدن الآمنة أو قوافل المسافرين الفارين من أهوال الحرب، علقت حقيبتها الهاند باج في كتفها ونزلت من الحافلة، تلفتت حولها، تنظر بوحشة واستغراب، كأنها نزلت في مكان آخر، فهذه ليست بغداد التي تحبها وتعشقها، وهذه ليست هي ساحة العلاوي التي تعرفها، فالناس تعلو وجوههم مسحة من الكآبة والحزن، وتغلب على حركاتهم الهرولة المرتبكة كأنهم جميعًا في عجلة من أمرهم أو يهربون من شيء مخيف يعرفونه ولا يفصحون عنه، وحتى أصواتهم وحديثهم صار عصبيًّا زاعقًا يخلو من المودة والألفة، الشوارع اكتست، بالحزن، فلا أحد ينظفها، ولا أحد ينظم حركتها، أصبحت الفوضى والقذارة سيدة المنظر، فالقمامة والأتربة فوق الأرصفة وعلى الأسفلت، إشارات المرور الضوئية لا تعمل، اللافتات الإرشادية مغطاة بالأتربة، حتى الأشجار اصفرت أوراقها وغطاها التراب،

والسيارات بها خبطات وكسور وألوانها باهتة ويعلوها التراب، أحست بيلسان بوخزة حادة في صدرها وانقبض قلبها فقالت بحزن:

- التاريخ يعيد نفسه فالاجتياح الأمريكي لبغداد قد دمرها وخربها كما فعل المغول في القرن السابع الهجري!

رفعت يدها فلم ينتبه لها سائق التاكسي، ولكنه توقف بعد أن تخطاها بعشرة أمتار، ولاحظ من خلال المرآة أنها فعلًا تلوح له فرجع إليها، فتحت الباب الخلفي وركبت لتبادره قائلة:

- أعانك الله على ما يشغل بالك هكذا.

- والله يا أختي هذا الدمار الذي أصاب العراق لم يبق فينا عقلًا نفكر به.

- وهذا ما يريده الأعداء.

- إنها أمريكا يا أختاه!! فمن يقدر على تلك الدولة المتوحشة وهي القطب الأوحد الآن.

- قبلنا قدرت عليها فيتنام وأجبرتها على الرحيل.

- معذرة، نسيت أن أسألك عن وجهتك؟

- الكرادة.

حديثها مع سائق التاكسي أصابها بالأسى والحزن على ما أصاب الروح في الإنسان العراقي، ذلك الانكسار والتسليم بالهزيمة لم يكن أبدًا من صفات العراقي المشهور عنه الجسارة والمروءة والنخوة والشدة، العراقي الذي كان يحلو له أن يصف جنوده بالأشاوس، كيف تبدلت مشاعره وانكسرت روحه وأصابه اليأس هكذا وسريعًا لمحت آثار ما جرى، فها هي بناية أصابها قصف

بالقنابـل أحالهـا إلى كومة مـن ركام تطل من حافاته أسـياخ الحديد المنصهر، وها هو جسر ترنح وانهار جزء منه وشُـد على مطلعه شريط أحمر لمنع السـير عليه، وتلك سـاحة انفجرت بها سـيارة مفخخة فتحولـت إلى بركة ماء قذر تحيط بها هياكل السـيارات المحترقة، أما عن جداريات الفسيفسـاء والتماثيل التـي كانـت تزيـن شـوارع بغـداد، فجميعها حطمت وشـوهت بـلا رحمة، حاولت أن تستجلي حقيقة ما حدث فقالت للسائق:

- لكنـي مذهولـة مما جـرى، فالجيش العراقـي لم يكن ضعيفًـا وكان يعد سـادس جيش بالمنطقة وحارب إيران لثماني سنوات ولم تكسره، فكيف انهار بهذه السهولة؟ وكيف سقطت بغداد هكذا كأنها شقة تسليم مفتاح؟

- جيشـنا أُنهـك تمامًا خلال سـنوات الحصار، فلا تسـتهيني بثلاثة عشر عامًا يمنعون عنه قطع الغيار والصيانة لمعداته.

- لكن روسـيا ودولًا أخرى كانت تخرق الحظر طمعًا في بترول العراق.. لا.. هناك شيء عبثي وغير مقنع.

- لعنة الله على الخيانة والغدر.

- كيف.. كيف حدثت هذه الخيانة ومن هم الخونة؟

- عندمـا ينكل صـدام بمعارضيه ويقهر الأكراد والشـيعة وهـم الأغلبية تصبح الخيانة واردة.

- لا تنس أن المعارضين جاءوا مع القوات الغازية، فمن الذي سلم بغداد طواعية؟

- يقال إن المخابرات الأمريكية اشترت أكبر مساعدي صدام.

- إذن استخدمت أمريكا الخيانة لتصنع حصان طروادة جديدًا تحتل به بغداد.. آاه.. لك الله يا عراق!

اضطر السائق أن يغير خط سيره المعتاد ويلف من شوارع جانبية ليتفادى انسدادًا بالشارع الرئيسي بسبب أبنية مهدمة أو انفجار مروع لم تزل آثاره تسد الشارع، حاول السائق أن يعتذر لها فقالت له:

- بالعكس أنا أقدر شجاعتك وأنت تعمل في هذه الظروف ولم تهرب أو تغادر مثل كثيرين.

- صدقيني ليست بطولة مني، فحتى الهروب والسفر له كلفة لا أقدر عليها، لا أملك إلا هذا التاكسي، وبالكاد أجمع به ما يسد الأفواه الجائعة عندي.

- أعانك الله.

ومدت يدها بحفنة من الأوراق المالية، أمسكها بدهشة وقال لها:

- لا، هذا أكثر من أجرتي.

- تستحق أكثر من ذلك، ها هو البيت.

توقف ونزل يفتح لها الباب ويشكرها، ابتسمت ومدت يدها له تصافحه وتشد على يده قائلة:

- أنت عراقي، كن بطلًا واصمد، فالنصر لنا.

- إن شاء الله.

قالها بأمل ورجاء وابتسامة باهتة تعلو شفتيه، ثم ركب سيارته وانطلق، بينما خطت بيلسان نحو بوابة بيت خالها، مدت إصبعها وضغطت زر الجرس،

كررت المحاولة ولم يخرج أحد، توقعت أن يكون التيار الكهربائي مقطوعًا، تناولت حجرًا ودقت به البوابة، انكمش طرف ستارة خلف زجاج النافذة، لمحت أحدًا يطل من خلفها، لوحت بيدها، انسدلت الستارة مرة أخرى ثم خرجت الدكتورة سهيلة زوجة أخيها عدنان وصرخت وهي تجري نحوها بلهفة: بيلسان، بيلسان.

اعتصرتها في حضنها، وظلت تقبلها وتتأملها غير مصدقة:

- بيلسان، كيف جئت؟

- جئت على أجنحة الشوق والحنين.

- يا اه، لك وحشة كبيرة جدًّا يا حبيبتي، تفضلي، لماذا لم تكلميني لأنتظرك في المطار؟

- جئت بالطريق البري من عمان.

- ولِمَ التعب؟

- فضلت أن أستوعب الواقع الجديد بالتدريج كما أنني متوجسة من سيطرة المحتلين على المطار.

- معك حق.. تفضلي.

دخلتا وأغلقت الباب، لاحظت بيلسان أن البيت شبه مظلم، يلفه السكون فسألتها:

- أين خالي؟

- الجميع في الفلوجة.

- الفلوجة دمرت وقصر خالي رأيته وقد هدم.

- انتقلوا إلى بيت البستان، إنهم صامدون.

- ولماذا تركوا بغداد وأنت والأولاد وحدك هنا؟

- البسـاتين والمـزارع في الفلوجة تعرضت للسـلب والنهب، وأخي إياد استنجد بأبي وإخوتي فانتقلوا هناك.

- وأنت؟

- بقيت هنا بسبب مدارس الأطفال وعملي بالمستشفى.

- وهل المدارس تعمل؟

- أخيرًا بدأت، لكن الأولاد لم يذهبوا اليوم.

- وأين هم؟

- نائمون.

- حتى الآن؟

- لم يناموا طوال الليل، إذ نجحت المقاومة في تفجير قنبلة عن بعد فدمرت مصفحـة «هامـر» أمريكية، على إثر ذلـك، حلقت فوقنـا أسراب الهليكوبتر وسـمعنا القذائف والانفجارات وأرتال المدرعـات تحوم من حولنا، فخاف الأولاد وتوقعـوا أن يهجـم علينا جنود المارينز في أية لحظة، فظلوا سـاهرين حتى الصباح ثم ناموا من التعب ولم أذهب إلى عملي، فقررت أن أسلي نفسي وأعد لهم «الدولمة» (المحشي) التي تحبينها أنت أيضًا.

- أحبيك حتى لو كانت دولمة بطعم الرعب.!

- لا، بالعكـس، يـا مـا دقت على الـراس طبـول، لقد اعتـدت على هذه المآسي، والأمريكان رغم همجيتهـم، ينصتون لمن يتحدث إليهم بالإنجليزية

لأن رعبهم في معظم الأحوال نابع من عدم فهمهم للغة العربية وخوفهم من أن أي شيء يجهلونه قد يخفي وراءه خطرًا عليهم؛ لذلك يتسرعون بإطلاق النار ويبدءون بالقتل ليحموا أنفسهم حتى لو بقتل أناس أبرياء.

- يعجبني فيك دائمًا شجاعتك ورباطة جأشك.

- عدنان علمني أن المكتوب ليس منه هروب.

- هل أبلغك عدنان أنه حدثني؟

- وقال إنك سوف تأتين ولكني لم أصدق.

- لكني جئت.

- مفاجأة رائعة فأهلًا بك.

- لكي أقنعك وأقنع عدنان بالمجيء معي إلى مصر.

- لا، كان غيرك أشطر، هذا من رابع المستحيلات.

- لماذا؟

- عدنان نذر حياته للعراق ولن يغادر وأنا مثله.

- ماما.. ماما..

- يبدو أن الأولاد قد استيقظوا.

- تعالوا يا حلوين.. هذه عمتكم بيلسان..

دلفت إلى غرفتهم ومعها بيلسان التي لم تكن قد رأت أحدًا منهم، بدأت تصافحهم وتقبلهم ثم حملت أصغرهم وخرجوا إلى غرفة المعيشة فحدثتهم بيلسان عن طفليها أمجد وروان وبدأت تعرض عليهم صورهما على الموبايل بينما انشغلت سهيلة بإعداد المائدة ورص أطباق الطعام فوقها.

بعد الغداء التف الأطفال حول عمتهم بيلسان وأشارت سهيلة إلى طفلتها الجميلة «نغم» قائلة:

- أتلاحظين أن الصغيرة «نغم» تشبهك؟

- فعلًا، وهذا طبيعي، البنت تطلع لعمتها.

وكان الطفل الأكبر «باسم» يكاد يلتصق بعمته ويرفع وجهه نحوها يتأملها بشغف وحب، فرحت بيلسان بنظرته ومالت عليه تقبله وتأخذه في حضنها فقال لها:

- أحبك يا عمة بيلسان.

- وأنا أموت فيك يا حبيبي.

وقالت سهيلة: باسم نسخة مصغرة من عدنان.

- صحيح ومن شابه أباه فما ظلم.

وسألها الطفل بعفوية:

- لماذا لم تُحضري أمجد وروان معك؟

- لأنني جئت لكي آخذكم معي إلى مصر.

- بيلسان..

نادتها سهيلة ثم استطردت:

- أتأكلين الفاكهة الآن أم تشربين الشاي أولًا؟

- والله، أفضل الشاي.

- سأعد لك شايًا عراقيًا يعيدك لذكريات بغداد.

وأقبلت تحمل صينية عليها موقد غازي صغير فوقه غلاية الماء وفوقها إبريق الشاي فقالت بيلسان:

- الله، ما أجمل هذا «السيماور».

- أعتقد أنكم في مصر لا تستخدمونه.

- صحيح ولكن عندي واحد ولا أستخدمه إلا قليلًا.

- الشاي على «السيماور» له مذاق رائع.

- لأنه ينضج ببطء وينضح طعمه الأصلي ونكهته المميزة في الماء فيبدو كالشيء المعتق.

- أتحبينه سادة أم بطعم النعناع أم القرنفل أم الحبهان؟

- أفضل السادة.

- مثل أخيك عدنان.

- سهيلة، فكري بجدية في السفر معي إلى مصر وساعديني في إقناع أخي عدنان.

- بيلسان، تريدين الصدق؟

- نعم، تكلمي بصراحة.

- مصر ستكون هي آخر مكان في الدنيا يمكن أن نسافر إليه.

- يا االه.! لماذا يا سهيلة، انها بلد رائع والمصريون طيبون جدًا.

- أدري والمشكلة ليست فيهم، ولكن ألا تعلمين أن البرادعي أضر بالعراق فأغمض عينيه عن تسريب تقارير كاذبة عن امتلاك العراق أسلحة

دمار شـامل كيماويـة وبيولوجية يتـم إخفاؤها عن لجان التفتيـش بنقلها من مكان لآخر على عربات متحركة؟

- حبيبتي، هذه أخطاء فردية، فما ذنب الشعب المصري؟

- وحسني مبارك ألم يرسل جنوده إلى حفر الباطن؟

- ألم يكـن احتـلال صـدام للكويت تدمـيرًا لتوجهات العـرب وتناقضًا صارخًا مع شـعار حزب صدام: أمة عربية واحدة ذات رسـالة خالدة، أهذا يبيح احتلال العراق للكويت؟

- معك حق، كلهم باعونا.

- أنا شخصيًا لا أرتاح لمبارك وأشعر أنه بلا رؤية ولدي تحفظات كثيرة على أدائه المتخاذل الذي لا يتناسب مع مكانة مصر ودورها الإقليمي كأكبر دولة عربية.

تنهدت سهيلة وأطلقت زفرة ساخنة فقالت بيلسان بمرارة:

- احتلال الكويت أصلًا كان غلطة قاتلة وكان يجب حلها في إطار عربي، ولكن أمتنا ابتليت بحكام عديمي النخوة والوطنية.

- بل قولي هم عملاء لأمريكا وأتباع ينفذون سياستها.

- للأسـف نعيش زمن اللامعقول، فغابت الإرادة الوطنية وحلت محلها الرغبة المسعورة في البقاء على كرسي العرش حتى الممات.

- بـل وبعد الممات، فمعظمهم يخطط لتوريث الحكـم لأبنائه كأن الوطن قطيع من الأغنام أو الإبل يتوارثونه.

- وهـا هي النتيجة مـا تفعله أمريكا بالعراق من تدمير وتخريب وسـلب ونهب لخيراته.

- يـا حبيبتـي هذا مخطط اسـتعماري جديـد يعتمد على نظريـة الصهيوني برنارد لويس بتقسـيم الشرق الأوسـط إلى كيانات صغيرة على أسـس عرقية وطائفية ودينية ومذهبية حتى يسهل على إسرائيل السيطرة على هذه الكيانات الصغيرة.

- هـذا مـا روجت لـه «كونداليزا رايـس» وزيرة خارجيـة أمريكا ومعها وسائل الدعاية الصهيونية تحت مسمى: «الفوضى الخلاقة».

- وحكامنا العظام سـاعدوها في التنفيذ، وها هو العراق يسقط ويقسم، وبعده سـيأتي الدور على سـوريا ولبنان ومصر والسـودان وليبيـا ولن ينجو أحد.

- أكلت يوم أُكل الثور الأبيض.

- جميعهم سيقولونها ويعضون أصابع الندم، ولكن بعد فوات الأوان!

- والعمل يا سهيلة؟

- ندعو الله أن ينصر المقاومة ويحبط مخطط إسقاط العراق.

- إذن لا أطمع في أكثر من رؤية عدنان.

- يقول عدنان إنه حاول إثناءك عن المجيء.

- لكني أصررت، ولدي استعداد أن أدفع عمري كله لكي أراه.

- كلنا نشتاق كثيرًا إليك يا حبيبتي ولكنك تخاطرين بحياتك.

- المكتوب لا هروب منه وأنا مؤمنة بقضاء الله وقدره.

- كوني حذرة، فطفلاك بحاجة إليك.

- خذي يا سهيلة، هذه الورقة بها أرقام تليفونات كل من يهمهم أمري في مصر، احتفظي بها حتى لو حدث لي مكروه فاتصلي بهم لتبلغيهم.

- أدعو الله أن يحفظك من كل سوء، وأن يعيدك لطفليك بأمان وسلام.. على أية حال سأحتفظ بهذه الورقة، لكنك ستبقين معي هنا حتى يحين موعد لقائك بعدنان.

- قال لي: عندما يكتمل القمر.

- لكنك إذا دخلت بيتكم فلن تخرجي منه، وستبقين في انتظار عدنان لمدة لايعلمها إلا الله، حتى يتمكن من المجيء إليك.

- ألن يأتي عندما يكتمل القمر؟

- إن استطاع، ولكن ربما تحدث أشياء تمنعه، فعدنان أصبح الآن قياديًّا بارزًا في المقاومة وحركاته مرصودة وليس من السهل عليه دخول بغداد.

أطلقت بيلسان تنهيدة حارة وقالت: «ربنا يستر».

■■■

كانت سهيلة سعيدة بمجيء بيلسان وإقامتها معها، فهي ليست ابنة عمتها وأخت زوجها فقط، ولكنها صديقة حميمة لها وتأنس لصحبتها وقد خففت عنها عبء المعيشة منذ وصولها، فهي لا تجلس كضيفة ولكنها تساعدها في إعداد الطعام ورعاية الأطفال خلال فترة عملها بالمستشفى، وفي ليالي القصف والاشتباكات بين المقاومة وجنود الاحتلال كانت تشجعها وترفع روحها المعنوية بحديثها المفعم بالإيمان والحب والوطنية، وفي لحظات الهدوء والشعور بالأمان كان حديثهما يتغلغل في تفاصيل شخصية فتسألها سهيلة:

- بيلسان، ألم تفكري في الزواج بعد حاتم؟

وبلا تردد تجيبها بيلسان:

- لا أعتقد، حاتم مازال يسكنني ويملأ قلبي بالحب.

- لماذا؟ مازلت زهرة متفتحة وجميلة، فهل تدفنين شبابك هذا وتترملين حتى المهات؟

- تعلمين أن حبي لحاتم كان حبًّا قويًّا وسأبقى حزينة عليه طول العمر وأشعر أنه لم يمت وأنه مازال معي، بداخلي، إنه يسكنني.

- حاتم كان شابًّا رائعًا ولكنه لم يعد موجودًا، فلم تحبسين حياتك وتسدلين ستارًا على شبابك وجمالك؟ فألف رجل يتمناك زوجة له.

- أخشى إن تزوجت أن أقصر في حق الطفلين، فهما أمانة قد ائتمنني حاتم عليها ولا بد أن أصونها وأربيهما بالطريقة التي تمناها.

- الزواج لن يمنعك من هذا إن أحسنت الاختيار..

كانت بيلسان على وشك أن تبوح لها بإلحاح أحمد بك صاحب الشركة التي تعمل فيها ورغبته في الزواج بها، ولكنها فضلت ألا تصارحها بذلك واكتفت بقولها:

- كثيرون تقدموا لخطبتي بعد حاتم ولكني لم أجد فيهم من يقنعني بالزواج، ربما لأن الطفلين يملآن عليَّ حياتي وحبهما يشبعني ويجعلني أزهد كل مباهج الدنيا، لقد أصبحا حبي الوحيد.

- بالمناسبة.. طفلاك بماذا يدينان؟

- طبيعي أن يكون دينهما الإسلام مثل أبيهما.

- نعم، نعم.

- سهيلة، تعرفين أنني أصلًا متدينة وعندما تزوجت (حاتم) تعرفت منه على حقائق كثيرة في دين الإسلام ولي أصدقاء وصديقات من المسيحيين في مصر وتعرفت من خلالهم على الدين المسيحي ثم قرأت عن الدين اليهودي وتأكدت أن جميع الأديان تخرج من مشكاة واحدة وتدعو إلى رسالة واحدة هي رسالة الإيمان بالخالق الواحد الأحد.

- معك حق، فالتعصب هو الذي جعل البشر يُجافون هذه الحقيقة، وتحولنا إلى فرق مثل مشجعي كرة القدم، كل مجموعة تتعصب لفريقها وتريد أن تمحو وجود الفريق الآخر متناسين أن الهدف واحد هو الطاعة والانصياع لله خالق الوجود وعبادته بصدق وإخلاص.

لم ترغب بيلسان أن تصدم سهيلة وتخبرها أنها اعتنقت الإسلام وتمارس شعائره بثقة وارتياح تام وأنها كانت على وشك الذهاب إلى الأزهر لإعلان إسلامها واجتهدت في ألا تجهر بصلاتها أمامها وأخفت المصحف الذي تحمله بين طيات ملابسها خوفًا من أن تثير حفيظة سهيلة فتتغير نظرتها ومشاعرها نحوها، فما هي إلا أيام معدودة وتنتهي الزيارة وترجع بيلسان لطفليها في مصر، فلا داعي لتغليب حرية العقيدة على صلة الدم والرحم حتى لا تعطي رسالة بالتفرقة والانقسام، لذا آثرت أن تخفي هذا الجانب ومرت أيام وهي تنتظر على أحر من الجمر وتترقب اكتمال القمر حتى حانت الليلة الموعودة فأعدت لها سهيلة حقيبة ملأتها بالطعام والشراب وأوصتها بالحذر والصبر، تعمدت بيلسان أن تنزل من التاكسي قبل بيت العائلة بمسافة كافية، ومشت وهي تراقب الطريق جيدًا لتتأكد أن أحدًا لا يراقبها أو يتبعها، كانت تضع المفتاح في صدرها، أخرجته واتجهت إلى بوابة البيت، فتحتها ودخلت ثم

أغلقتها وخطت داخل البيت، مهتدية بضوء خافت لكشـاف يدويٍّ صغير، وسرعان ما جرفها شلال الذكريات لسنوات مضت، فشمت عبيرها ورأت صورهـا البديعة تجري أمامها كشريط سينمائي جيد الصنع، ففي هذا الركن جلسـت مـع أبيهـا، وفي هذا الركـن لعبت مـع أخيهـا، وهنا كانـت تذاكر، وها هي غرفتها مازالت كما هي، وفي المطبخ كانت تساعد أمها، وهنا مزهرية ورد مـن اختيارهـا، وهذه لوحة فنية هي التي اشـترتها، وهـذه صورة كبيرة لأبيهـا، وتلك صور تجمع الأسرة كلها، تراكمت في عقلها ذكريات السـنين كأنها ركام أطلال ناطحة سحاب انهارت وتحولت إلى كومة هائلة من الحجر والطوب والحديد والألوان المتداخلة.

ارتمت بيلسـان على كنبة في غرفة الاستقبال وتنفست بعمق كأنها تريد أن تمـلأ صدرها بهواء هذا البيت الرائع الذي يبـوح لها بأروع الذكريات نظرت في سـاعتها وتمنت أن يدخل عليها أخوها الحبيب عدنان في أية لحظة، كانت تتحرق شوقًا لرؤياه وأن ترمي رأسها في صدره وتبكي، لعلها تغسل بدموعها آلام الفراق والشوق والغربة وتتخفف قليلًا من وحشة الحنين الذي يسكنها ويمـلأ عقلهـا برؤى جميلـة وأحـلام وردية، وبينما هـي تفكر وتمدد سـاقيها مسترخية على الكنبة، انتفضت واقفة وكاد قلبها ينخلع من صدرها، ووقف شـعر رأسـها من شـدة ما أصابها من رعب، فقد صم أذنيهـا صوت انفجار هائل، تبعه أصوات صراخ وبكاء وضجيج زحام ثم إطلاقات رصاص تنهمر عشـوائيًّا من جهـات مختلفة، وبعد لحظات ميزت صوت سـارينة إسـعاف، يختلط بهدير مدرعات وعربات عسكرية ولم ينقطع تبادل إطلاق الرصاص، أصابهـا الخوف والارتباك، شـعرت أنها أقرب إلى المـوت من أي وقت مضى وأن نهايتهـا أوشـكت، وقد لا تخرج سـالمة مـن البيت، كان جسـمها يرتعد،

وقلبها يدق بعنف، وصدرها يعلو ويهبط، وتستنشق أنفاسها بصعوبة مع عرق غزير يطفح من كل جلدها، ابتلعت ريقها، وخطت بحذر نحو النافذة، حاولت أن ترى شيئًا من وراء الزجاج، كان الانفجار في الشارع الخلفي، ولم تر مايفسر لها ما حدث، مشت إلى السلم، صعدت بحذر، فتحت باب السطح، اقتربت من السور، تطلعت بعيدًا لترى عمودًا من الدخان ما زال يتصاعد من مدرعة تشتعل فيها النيران، يحاولون إطفاءها وسيارة الإسعاف حملت مصابين، ومضت مبتعدة، سيارات «هامر» مصفحة يحيط بها جنود المارينز المدججون بالسلاح، يصوبون فوهات بنادقهم في اتجاهات مختلفة، ويطلقون النار عشوائيًا في الظلام، لاحت في الأفق طائرات «أباتشي» تطلق الصواريخ باتجاه محدد كأنها تطارد سيارة مسرعة، خنقتها رائحة الثوم في سحابات الدخان التي غطت المدينة، فالسماء تدمدم فيها القذائف والصواريخ والقنابل كأنها ثورة الرعد والبرق، وتشقها أقواس من لهب وخطوط متعرجة بيضاء كأنها شهب ونيازك تنهمر على الأرض بلا هوادة، خافت أن تصيبها إحدى القذائف، فآثرت السلامة ونزلت السلم وهي تدعو الله أن ينجيها من هذا الكرب العظيم، انزوت على الكنبة وجسمها ينتفض وعقلها يحدثها:

- «ترى، أيكون عدنان وجماعته هم المستهدفين بهذا الهجوم؟ هل قبضوا عليه وهو قادم إلى هنا أم يكون قد أصيب؟ إنه تأخر، فهل سأبقى وحدي هنا أم أرجع إلى بيت خالي، لكن سهيلة أوصتني بالصبر وأعطتني طعامًا يكفيني لعدة أيام، نعم، يجب أن أبقى وأصبر، حتمًا سيأتي عدنان، إنه بخير، عدنان بطل ولن يقدروا عليه، سيأتي، نعم سيأتي».

وظلت تطارد ظنونها حتى غلبها النوم وهي جالسة على الكنبة، لم تدر كم من الوقت مضى وهي نائمة، غارقة في أحلام رائعة: فمرة تضاحك أمها وأباها وهي تقدم لهما طبقًا من الفاكهة، ومرة تحلم بلقاء أخيها عدنان وتشم أنفاسه الحارة وهو يأخذها في حضنه، فتملأ صدرها من رائحة عطره الشبيه بخليط من روائح القرنفل وخشب الصندل والتبغ، روائح بطعم الرجولة والشهامة والقوة، ونقلتها الأحلام إلى حضن طفليها أمجد وروان تداعبهما وتحنو عليهما كقطة تلاعب صغارها بعطف وحنان، وفجأة انتفضت وصحت مرعوبة على صوت انفجار مدوٍّ، يهز أركان البيت، خرجت مذعورة لترى باب البيت قد انخلع وسقط على الأرض، ومشى فوقه مجموعة من جنود المارينز المدججين بالسلاح، يشهرون فوهات بنادقهم نحوها، ويغطون وجوههم بنظارات وأقنعة واقية، وقبل أن تفيق من هول المفاجأة، ودون أن تنطق بكلمة واحدة، أمسكوا بها وقيدوا ذراعيها خلف ظهرها برباط من البلاستيك، ثم وضعوا عصابة سوداء حول عينيها فسألتهم:

- أنا مصرية، ماذا تريدون مني؟

لم يرد عليها أحد وانتشروا يفتشون البيت ويعبثون به، كان معهم رجل غير مسلح، توقعت أن يكون عراقيًا يقوم بالترجمة وأدركت أنه كذلك عندما توجه نحوها يسألها بلهجة عراقية:

- وماذا تفعلين هنا وأنت مصرية؟

- كنت أتهيأ للسفر إلى أهلي في مصر.

- أنـت كاذبـة وهـذا بيـت الإرهابي عدنـان عبـد الواحد ألسـت أخته؟ خذوها.

ودفعهـا بخشـونة، ليجرهـا أحد الجنود ثـم حملها وألقى بهـا على أرضية سيارة عسـكرية، بها معدات وأجسام صلبة، أوجعتها وآذت ضلوعها حينما وقعـت عليها وارتطمـت بها فصرخت وأخذت تبكي، لكـن أحدًا لم يلتفت لصراخها وظل الجنود يتصايحون ويركضون ثم انطلقت بها السيارة وضربها أحدهم بحذائه في وجهها لكي تسكت وتتوقف عن الصراخ والنحيب.

لم تتوقـف السـيارة إلا بعـد أن اجتازت بوابة مبنى وسـارت داخله قليلًا ثم توقفت، دفعوها لتنزل من السـيارة وهي مازالت مقيدة اليدين ومعصوبة العينـين، دخلـوا بها في ممر ضيق ترن عـلى بلاطه خطوات الجنـود بأحذيتهم الثقيلة، فتحوا بابًا حديديًّا وقام أحدهم بدفعها بقوة فارتطمت بجدار خشن وسـقطت عـلى الأرض بينـما أغلق البـاب الحديـدي، فأدركت أنهـا الآن في سـجن، تذكرت أن المترجـم كان يعرف بيتهم ويعرف اسـم أخيها وتوقعت أن يكون أحد جيرانهم فقالت في نفسها:

- «لم يكتـف الخونة بتسـليم بغداد ولكنهم يحاولـون تجريدها من النخوة والشـجاعة وروح المقاومـة، ولن ينجحوا، وبحثهـم المحموم عن أخي أكبر دليل على أنه يقاومهم بضراوة وأن ضرباته تؤلمهم».

في تلـك اللحظة اسـتعادت روح الصمود وشـعرت أن جينـات البطولة حتمًا تسري في أوصالها مثل أخيها وأنها يجب أن تفخر بما يحدث لها ولا تهابهم حتى لو قتلوها.. فلتذهب فداء للوطن، هدأت واستكانت وتملكتها حالة من اللامبالاة فتمددت على أرضية الغرفة واستشـعرت الراحة من برودة البلاط

لكي تلطف سخونة جسمها؛ لكنها بعد لحظات لسعتها البرودة، فقامت بصعوبة وحاولت أن تستند إلى الجدران، وتمشي محتكة بها لتعرف أركان الغرفة وتدرك حجمها، بعد لحظات أيقنت أنها زنزانة سجن ضيقة وخالية من النوافذ وربما تكون تحت الأرض، سمعت نحيبًا وصراخًا وتوقعت أن الغرف المجاورة بها سجينات يتلقين لكمات وربما تنتهك أعراضهن، إذن فالدور سيأتي عليها، واستنتجت أيضًا أنهم وضعوها في زنزانة انفرادية حتى لا تؤثر على أقوالها سجينات أخريات قبل بدء التحقيق معها، وربما يعتبرونها صيدًا ثمينًا أو سجينة خطيرة باعتبارها أخت عدنان عبد الواحد.

قالت لنفسها: فليكن ما يكون ولكن انتظار البلاء أشد من وقوعه، فليأتوا وليحققوا معي كما يريدون، أريد أن أصل لنهايتهم.

تحسست الجدران حتى وصلت إلى باب الزنزانة فأخذت تضربه بقدمها وتصيح:

- أيها الجبناء، أخرجوني من هنا، أنا مصرية.

لم يأتها رد فعل فتوقفت وظلت مستندة إلى الجدار وهي ثائرة يملؤها الغيظ كأسد محبوس في قفص.

بعد لحظات سمعت خطا ثقيلة تقترب وامتدت يد بمفتاح في الباب ثم انفتح ودخل عليها أحد جنود المارينز قائلًا:

- ماذا بك يا صغيرتي؟

ردت عليه بالإنجليزية:

- من فضلك فك قيدي وارفع العصابة عن عيني.

- أووه، أنا آسف.

قـام بفك القيد عن يديها ثم العصابة فرأته من خلال شـعاع الضوء الآتي من الطرقة، رأته جنديًّا أحمر الوجه، غليظ الملامح، يشبه قراصنة البحار، كان يتأملها ويبتسم بخبث ثم قال:

- أووه، إنك جميلة، دعينا نستمتع بهذا الجمال.

وأقبل عليها يقبلها ويحتضنها، فدفعته قائلة:

- لا، لن أسمح لك، ابعد عني.

- اهدئي واتركي نفسك لي حتى لا أغضب منك.

- قلت لك ابعد عني أيها الحقير.

- جمالك يغفر بذاءة لسانك..

- ابعد أيها القذر.

أثـاره تمنعها ورفضها فهجـم عليها كذئب جائع وحـاول أن يضمها إليه ويقبلها، استجمعت كل قواها وضربته بركبتها في عضوه الذكري، فسحقت خصيتـه، صرخ مـن الألم ثـم جلـس القرفصاء ممسـكًا ذلك الجزء الحسـاس وهـو يتـأوه ويلعنها بكلمات وأوصاف بذيئة، فغافلتـه وخرجت من الزنزانة تجري، تناول مسدسـه واستدار يطلق النار عليها فأخطأتها ثلاث رصاصات وأصابتها الرابعة في كتفها، تجمع الجنود والحراس وجاء مدير السجن منزعجًا ليراها وقد سـقطت على الأرض بينما التف الجنود حول زميلهم يهدئونه بعد أن ظنها قد ماتت فادعى أنها حاولت أن تخطف منه المسـدس لتقتله فاضطر لقتلها، فحصها مدير السجن فوجدها مصابة في كتفها وانتبهت فقالت:

- هـل جئتـم إلى بلادنا لتغتصبوا النسـاء! أيها الـكلاب ارجعوا لوطنكم فالموت أهون علينا من العار.

التفت مدير السجن إلى أحمر الوجه وسأله:

- هل حاولت اغتصابها؟

- إنها كاذبة، هي حاولت خطف المسدس مني.

- ألم يكفكم فضيحتنا في سجن أبي غريب؟ خذوه، أنت محال للتحقيق، وهذه تنقل فورًا للمستشفى.

- سيدي لم نحقق معها بعد.

- فليجر التحقيق معها وهي في المستشفى، إنها تنزف، هيا..

في تلك اللحظة فقط أحست بيلسان بألم حاد في كتفها وشعرت أن عمرًا جديدًا قد كتب لها وأنها نجت الليلة من موت محقق، فلو أن هذه الطلقة أصابتها في رأسها لكانت الآن في خبر كان، حمدت الله في سرها ودعته أن يقويها وينصرها ويعيدها سالمة لطفليها.

حملتها سيارة الإسعاف وانطلقت بها إلى المستشفى تحت حراسة مشددة ورغم شدة الألم وإحساسها بأن قطعة من الجمر تنخر في عظام كتفها إلا أنها كانت راضية ومطمئنة أن الله لن يخذلها أو يتخلى عنها أبدًا، وبدلًا من أن تصرخ وتستغيث من شدة الألم كانت تنادي بأعلى صوتها:

- يا ألله، يا ألله، كن لنا يا ألله، أنت القوي يا ألله، أنت العلي الجبار يا ألله، انصرنا يا ألله.

قطعت عليهم المربية كوثر فهمي حديث الذكريات واقتربت لتسألها:

- سيدتي، هل لك طلبات محددة على الغداء؟

- طلبات.. كوكو.. لا تدلليني هكذا فسوف يرضيني أي شيء يعجبك، لقد رأيت لمساتك الجميلة في البيت وأنا أثق في ذوقك حتى في الطعام.

- ميرسي.

وربتت الدكتورة سعاد على كتف بيلسان قائلة:

- لهفي عليك يا حبيبتي، لقد مررت بمحن كثيرة.

- لا، إنها تعذبت بعد ذلك أكثر ورأت الأهوال.

قالها أحمد بحماس فالتفتت إليه بيلسان وقالت:

- لكن وصولك إلى بغداد كان أكبر مفاجأة لي ولا أدري كيف وافقت الدكتورة سعاد على سفرك.

- يا اه.. كانت ليلة حزينة جدًّا..

■■■

10

في هدأة الليل، رن جرس التليفون، استيقظ أحمد واعتدل في السرير وهو يمد يده نحو السماعة:

- ترى من يتصل بنا في هذا الوقت؟

- رد، فقد يكون هناك شيء يخص الشركة.

قالتها الدكتورة سعاد وهي تنهض منزعجة وتنظر إلى التليفون باهتمام.

- ألو.

- أستاذ أحمد مختار؟

- نعم أنا.

- آسفة جدًّا على إزعاجك في هذا الوقت.

- من أنت؟

- أنا سهيلة زوجة عدنان شقيق السيدة بيلسان.

- تحت أمرك، تفضلي.

- كانت بيلسان قد تركت لي رقم هاتفك وطلبت أن أتصل بك إن حدث لها مكروه.

- وماذا حدث لها؟

- تم القبض عليها فأرجو أن تحاول مساعدتها باعتبارها تحمل الجنسية المصرية.

- وماذا فعلت ليقبضوا عليها؟

- أرسلت محاميًا إلى السجن فلم يمكنوه من مقابلتها.

- لماذا؟ سيدة تزور وطنها، ما هي تهمتها؟

- إنهم هنا يقبضون على الأبرياء ثم يلفقون لهم التهم كما يشاءون، أرجوك اتصل بوزارة الخارجية، بالأمم المتحدة، بمنظمات حقوق الإنسان، افعل شيئًا من أجلها.

- اطمئني، سأفعل كل ما أستطيع.

وضع سماعة التليفون وتنهد ثم قال:

- العراق أصبح محتلًّا والأوضاع ملتهبة والقتل هناك على الهوية، لا أدري لماذا ذهبت بيلسان؟

- ربما خوفها ولهفتها على أخيها الوحيد.

أجابته زوجته بنوع من المواساة والتماس العذر فقال:

- إن طفليها أولى برعايتها.

- بيلسان قالت لي إنها مسكونة بالحنين، والإنسان إذا سكنه الحنين فقد يوجه أفكاره ويقود تصرفاته ويدفعه لعمل ما لا يقدر عليه الآخرون.

- أكانت تظن أن زيارتها للعراق ستخرج المحتلين؟

- لا، هناك دافع شخصي بحت، شيء يتصل بمشاعرها وعواطفها هي، كأن يستقر في وجدانها أن أخاها معرض للموت وهذه فرصتها الأخيرة لكي

تراه وربما شعرت أن هذه آخر مرة يمكن أن ترى فيها وطنها قبل أن يقسم وتتبدل أحواله.

- وضعت نفسها في مأزق صعب.

- من أجل طفليها حاول أن تساعدها.

- بأية صفة، لا أنا زوجها ولا أحد أقاربها.

- ولكنك رب العمل وهي موظفة عندك ومصرية مثلك.

- سأحتاج ما يثبت أنها مصرية.

- بالتأكيد حماها عنده وثيقة زواجها من ابنه أو حتى صورة من جواز سفرها المصري.

- وقد أحتاج لمقابلة مسئول كبير بوزارة الخارجية.

- عمي وجدي بك يحل لك هذه المشكلة.

- أتأتين معي لزيارته؟

- لا مانع.

حاول أحمد أن يخفي جزعه وحزنه الشديد لما حدث لبيلسان، حتى لا يثير غيرة زوجته، لكنه شعر بوخزة ألم وندم على أنه لم يستطع منعها من السفر، تظاهر بمعاودة النوم ولكنه كان مستلقيًا في السرير يفكر ويبحث عن وسيلة لنجدة بيلسان وإنقاذها مما هي فيه، في الصباح، تلكأ حتى خرجت زوجته إلى عملها ثم اتصل بالسيد عبد العظيم فوجده يبادره:

- أعلمت يا أستاذ أحمد بما حدث لبيلسان؟

- هل اتصلت بك زوجة أخيها؟

- نعم ومن لحظتها ونحن في حيرة من أمرنا أنا وزوجتي نضرب أخماسًا في أسداس ولا نعرف ماذا نفعل؟

- هل لديك صورة من جواز سفرها المصري أو من وثيقة زواجها بابنك المرحوم حاتم.

- نعم، نعم عندي.

- إذن سأحضر إليك حالًا لكي آخذها وأذهب بها إلى وزارة الخارجية.

حصل أحمد على الأوراق المطلوبة، لم ينتظر حتى تذهب معه زوجته وعند الظهر توجه مباشرة إلى مكتب عمها وجدي بك وطلب مقابلته فظن الرجل عندما أبلغوه أن أمرًا جللًا دفع أحمد مختار زوج الدكتورة سعاد للمجيء إلى مكتبه هكذا بلا تمهيد أو اتصال سابق، ترك اجتماعًا مهمًّا وقام يستقبله في غرفة جانبية:

- أهلًا يا أحمد.. تفضل، خيرًا؟

- عندي موظفة مصرية من أصل عراقي، تركت طفليها هنا وذهبت لرؤية أخيها الوحيد الذي لم تره منذ سنوات، فقبضوا عليها وسجنوها.

- بسيطة، سأكتب توصية لزوجها لكي يذهب.

- لا.. إن زوجها قد توفاه الله.

- شقيقه أو والده أو من يهمه أمرها هنا.

- أنا من يهمه أمرها فإلى أين أذهب؟

- إلى هذه الدرجة يهمك أمرها؟

- جدًّا.

- ماذا كانت تعمل عندك؟

- مهندسة كمبيوتر بامتياز، أرجوك يا عمي ساعدني لأن طفليها لن يحتملا غيابها كثيرًا.

- اترك لي بياناتها وسأتصل بسفيرنا في بغداد إيهاب الشريف وأطلب مساعدته.

- ها هي الأوراق وأرجو أن تطمئنني عليها قريبًا.

- بإذن الله.

شكره وخرج متجهًا إلى مكتبه بالشركة ولكنه لم يستطع التركيز في العمل، كان مزاجه سيئًا، كل تفكيره يتجه إلى بيلسان وهل سترجع ثانية أم لا، تذكر ما قرأه في الصحف منذ فترة عن قيام جنود المارينز باغتصاب السجينات العراقيات وهتك أعراضهن داخل السجون، ولمجرد أن طاف بذهنه أنهم قد يفعلون ذلك مع بيلسان صرخ بلا وعي:

- لا...

هرع إليه مدير مكتبه يسأله بانزعاج وقلق:

- ماذا بك يا أحمد بك؟

- هه.. لا شيء.. نوبة مغص مفاجئ.

- هل أطلب لك الطبيب؟

- لا.. أخذت مسكنًا وسأذهب إلى البيت.

- ألا تحتاج سائقًا؟

- لا.. سأقود السيارة بنفسي.

خـرج، فصحبـه مدير مكتبـه حتى السـيارة، ركبها وانطلـق وأخذ يدور ويلـف بشـوارع المهندسـين حتـى توقف أمـام كافيـه الكرخ، ركن السـيارة ودخل من باب الكافيه، فاسـتقبله حاج غفور مرحبًا به كوجه جديد يأتي إلى الكافيه لأول مرة:

- أهلًا وسهلًا، تفضل.

- شكرًا، من فضلك، أين أجد الأستاذ قصي؟

- قصي لا يأتي هنا إلا في المساء.

- لكني أريد مقابلته الآن.

- عفوًا، هل أتشرف بمعرفة سيادتك؟

- أنـا أحمـد مختـار صاحب شركـة «مالتي ميديـا 21 للبرمجيـات وأنظمة الكمبيوتر».

- أهلًا بك، لقد جئت في الوقت المناسب، هل تعلم أن السيدة بيلسان تم القبض عليها في بغداد؟

- هل أبلغتك أنت أيضًا؟

- أستاذ أحمد، أنت الوحيد القادر على مساعدتها.

- كيف؟

- لا أعرف بالضبط ولكنك مصري ورجل أعمال، بالتأكيد لك اتصالات برجال كبار في الخارجية أو السفارة المصرية.

- لقد فعلت ذلك وأنتظر الرد.

- للأسف، الموقف لا يحتمل الانتظار.

- وماذا بيدنا لنفعله؟

- أستاذ أحمد، هل تريد أن تحررها؟

- بكل تأكيد.

- إذن دعك من الاتصالات وسؤال السفارة.

- ماذا تقصد؟

- اذهب بنفسك ومعك ما يثبت أنها مصرية واطلب مقابلة كل المسئولين في الحكومة العراقية وعندما تكون هناك السفارة المصرية ستتحرك معك.. أما السؤال من هنا فلن يجدي نفعًا.

- أترى أن سفري إلى بغداد سيعيدها؟

- الله كريم، لم لا؟ وسأعطيك اسم ورقم هاتف محام كبير في بغداد سوف يساعدك.

- ستكون مغامرة ولكن بيلسان تستحق.

- إن أردت إنقاذها لا تتردد فالوقت ليس في صالحها.

- سأذهب.

- أما الأستاذ قصي فسوف تجده الآن في البورصة المصرية.

- حالًا سأتوجه إليه.

اختمرت الفكرة أكثر في ذهن أحمد وهو يتحدث إلى قصي الذي أفاض في وصف الأوضاع في بغداد وكيف تبدلت أحوالها وأصبح كل شيء فيها مباحًا الآن تحت الاحتلال وكل شيء يمكن شراؤه بالمال حتى الضمائر فما بالك بتحرير أو تهريب سجينة واختتم قصي حديثه قائلًا:

- ألم تلحظ يا أستاذ أحمد أن قواتْ الاحتلال أعلنت عن مكافأة تصل إلى 25 مليونًا من الدولارات لمن يدلها على مخبأ صدام حسين؟

- نعم.

- ولم يمض وقت كثير حتى أوقعته، المال يا صديقي في بلد محتل سيفتح لك الأبواب المغلقة ويفك أي كلمة سر قد تواجهك.

تأخر أحمد، اتصلت زوجته بالشركة فأبلغوها أنه شعر بوعكة وانصرف مبكرًا، تملكتها الحيرة واتصلت بوالدته فلم تجده عندها، ملأت رأسها الظنون والهواجس وقبل أن تمد يدها لتسأل وجدي بك، فتح الباب ودخل أحمد حزينًا، يجر ساقيه في وهن وانكسار فبادرته خائفة:

- مالك يا أحمد؟

- بيلسان وضعها صعب جدًّا يا سعاد، كنت مع قصي وحدثني عما يحدث في سجون بغداد، تخيلي هذه السيدة الفاضلة، المرأة الشريفة المؤمنة، تخيلي ماذا يحدث لها لو حاول جندي أمريكي اغتصابها أو...

- لا.. لا يا أحمد، لا تكمل أرجوك، لقد أحببتها.. لا، بيلسان لا تستحق ذلك أبدًا.

- لو حدث لها ذلك فستنتحر، إنها حرة ولن تحتمل الحياة لو أُهدرت كرامتها.

- نجها يا رب، طفلاها بحاجة إليها.

- لقد أوصيت جدهما أن يخفي عنهما الخبر ولكنه لاحظ أن الطفلين أصبحا أكثر عصبية.

- فلنذهب إليهما الليلة ونحاول أن نسري عنهما.

- نعم، هذه فكرة جيدة.

- ولكن نذهب أولًا إلى عمي وجدي بك.

- اعذريني، لقد ذهبت إليه وطلبت مساعدته.

- وهل طمأنك؟

- لا.. يبدو أن الوضع أسوأ مما كنت أظن.

- لماذا؟

- بلد تحت الاحتلال، لا شيء فيه طبيعيٌّ أو يأخذ مسارًا عاديًّا، كل شيء هناك مرتبك ومتداخل وموصوم بالخيانة.

في المساء تحولت الدكتورة سعاد إلى طفلة مثل أمجد وروان وشاركتها فضيلة في اللعب معهما بينما كان أحمد مشغولًا بحديث هامس مع الجد والجدة عما يمكن أن يفعله لإنقاذ بيلسان وإعادتها إلى مصر من أجل طفليها.

صباح اليوم التالي، توجه أحمد إلى مكتب وجدي بك وصارحه برغبته في السفر إلى بغداد والاستعانة بمحام لإخراج بيلسان من السجن، لم يستحسن وجدي بك الفكرة وغمز بأنفه في غير ارتياح ثم قال محذرًا:

- هناك خطورة على حياتك لو ذهبت.

- مادام هدفي نبيلًا سيوفقني الله.

- إلى هذه الدرجة تحتاج للسيدة بيلسان في شركتك؟

- لا، بصرف النظر عن الشركة إنها صديقة لنا أنا وزوجتي ونعلم جيدًا أن طفليها بحاجة إليها ثم إنك لو رأيتها فستدرك أنها لا تستحق ولا تحتمل أية إساءة لمشاعرها فما بالك بالسجن وما يحدث فيه؟

- مـا دمـت تريد السـفر، دعنـي أسـتخرج لك جواز سـفر ديبلوماسـيًّا ليساعدك في الوصول للمسئولين هناك.

- أشكرك يا عمي هذه خدمة عظيمة جدًّا.

- لكن اعلم أن هذا إجراء اسـتثنائي وسـوف تسـلم لي جواز السفر فور عودتك.

- بإذن الله.

فوجئـت سـعاد بترتيبات سـفر زوجها إلى بغـداد وحاولـت أن تثنيه عن ذلك لكنه حزم أمره وقال في إصرار:

- هذه مهمة في سبيل الله وسوف أنجح.

- لكن بغداد غير آمنة وكل يوم نسـمع عن انفجارات واغتيالات تحدث هناك.

- لقد عزمت على السفر والله معي.

رضخـت سـعاد لإصرار زوجهـا فدعـت الله أن يوفقـه وفي قلبها خوف وقلق شـديد، جلسـت ترمقه في أسـى وجزع وهو يتحدث إلى صلاح مدير مكتبه طالبًا منه أن يؤكد موعد السفر مع شركة الخطوط العراقية.

■■■

11

في ساحة الفردوس، بوسط بغداد، توقف التاكسي أمام بوابة فندق «عشتار شيراتون» ونزل منه «أحمد مختار» حاملًا حقيبة صغيرة، دخل فوجد بهو الفندق خاليًا إلا من بعض ضباط المارينز الأمريكان من ذوي الأصول الزنجية وبعض الرجال بملابس مدنية، توقع أن يكونوا صحفيين أجانب أو من رجال المخابرات، اتجه إلى موظف الاستعلامات:

- مساء الخير، أريد غرفة مستقلة.

- حضرتك مصري؟

- نعم.

- صحفي؟

- ديبلوماسي.

- أهلًا وسهلًا، أنا أيضًا مصري.

- وتعمل هنا في هذه الظروف؟

- مقيم في بغداد منذ عشرين عامًا وزوجتي عراقية.

- نعم، فهمت، أعانك الله.

- الأوضاع هدأت الآن عن ذي قبل.

- معي لن تفرق، الديبلوماسي كالمحارب روحه على كفه.

- سأحجز لك غرفة موقعها متميز جدًّا.

- أشكرك.

- كم يومًا ستبقى معنا؟

- بصراحة، لا أعرف.

- نظام الدفع كاش أم فيزا كارت.

- ممكن فيزا كارت.

- نصيحتي لك ألا تترك شيئًا مهمًّا في غرفتك والشيء الذي تخاف عليه اتركه عندي هنا في الأمانات.

- شكرًا، لم أتشرف بمعرفة اسمك.

- أخوك الصغير ممدوح مصطفى جبر من كفر شكر.

- أجدع ناس، تشرفنا يا أخ ممدوح.

- متر، يا متر.. خذ الأستاذ إلى غرفة رقم 604.

دخل أحمد المصعد الزجاجي وشاهد من خلاله بانوراما رائعة لشارع أبي نواس وشوارع وبيوت حي «الكرادة» ولفت نظره بيت جميل تزهو حديقته بنخلة باسقة، يلعب تحتها بعض الأطفال على أرجوحة صغيرة، نظر نحوهم بابتسامة وهو يتذكر أمجد وروان ولا يدري أن أطفال بغداد هؤلاء هم أبناء عدنان خال أمجد وروان وأن هذا البيت الجميل هو بيت خال بيلسان التي كانت مقيمة فيه منذ بضعة أيام قبل الزج بها في السجن، في الغرفة بدَّل ملابسه وأخرج ثياب النوم ووضعها في الدولاب، خرج إلى الشرفة وتأمل منظر البيوت الممتدة على جانبي النهر وحركة السيارات في الشوارع التي لا

يعكرها إلا بعض المدرعات وعربات «الهامر» وجنود الاحتلال هنا وهناك، رن جرس التليفون بالغرفة، وأتاه صوت ممدوح من الاستعلامات:

- أحمد بك، لك الحق في طلب الغداء الآن إن أردت.

- شكرًا، سأصلي وأنزل إلى المطعم.

- كما تريد.

- من فضلك، أريد أن أشتري شريحة لخط تليفوني بالشبكة التي تعمل هنا.

- سأجهز لك واحدة تأخذها عندما تنزل.

بعد الغداء صعد إلى غرفته، جلس على حافة السرير اتصل برقم أخرجه من مفكرته فأتاه صوت ودود:

- ألو.

- جناب السفير إيهاب بك الشريف.

- من معي؟

- أحمد سمير مختار.

- أهلًا، أهلًا.. متى وصلت يا أستاذ أحمد؟

- منذ ساعة تقريبًا.

- أين أنت الآن؟

- نزلت بفندق «عشتار شيراتون».

- بعد نصف ساعة سيأتي إليك أحد موظفي السفارة ويأخذك بسيارته إلى سجن النساء.

- أشكرك إيهاب بك.

- لا شكر على واجب، وقد أوصاني عليك أستاذنا وجدي بك فأرجو أن نكون عند حسن ظنه.

أثناء انطلاق السيارة بهما في شوارع بغداد صارحه وائل توفيق موظف السفارة بأن وجدي بك هو الذي دربه على العمل واستخدام الأجهزة المختلفة وهنا استنتج أحمد مختار أن هذا الموظف له صفة عسكرية مخابراتية وإن كان يعمل في السفارة كديبلوماسي، فاطمأن قلبه وأدرك أن ضخامة جسم وائل وراءها خبرة وقدرة على الدفاع عن النفس إذا لزم الأمر، لم يكن دخولهما السجن سهلًا، فقدَّما جوازي سفرهما وانتظرا في السيارة لمدة تزيد على الساعة حتى خرج لهما جندي عراقي ليعيد جواز السفر لكل منهما ويبلغهما أن السيدة بيلسان التي يسألان عنها ويدعيان أنها مصرية ليست نزيلة بالسجن وهنا استشاط أحمد غضبًا فغمزه وائل وطلب من الجندي أن يأخذه إلى مدير السجن ليتحدث معه، تنهد الجندي العراقي بنفاد صبر وقال:

- يا أخي مدير السجن أمريكي ولا يقابل أحدًا.

- اذهب إليه وأعطه جواز السفر وقل له إنني أريد التحدث إليه.

- لن يوافق.

- أرجوك، حاول وسوف يوافق.

مضى الجندي وهو يشير بيده الممسكة بجواز السفر بعدم اقتناع ثم رجع بعد دقائق ملوحًا بيده. فنزل وائل من السيارة:

- أحمد بك، ابق بالسيارة ولن أتأخر عليك.

دخل وائل وغاب لمدة ربع الساعة ثم رجع ليقود السيارة قائلًا:

- بيلسان بالمستشفى وقد أعطاني تصريحًا لمقابلتها.

- وأنا؟

- نعم وأنت معي.

- هيا بنا.

كانت بيلسان قد أنكرت في التحقيقات أية صلة لها بالإرهاب أو عمليات المقاومة وأصرت على أنها مصرية تحمل جواز سفر مصريًّا وليس من حقهم حبسها وإهانتها بهذا الشكل وحينها دخلت عليها الممرضة وأخبرتها أنهم يريدون مقابلتها في غرفة مدير المستشفى، ظنت أنهم يريدون استكمال التحقيقات معها، فمشت مع الممرضة بلا مبالاة ودون أن تساوي شعرها المنكوش واكتفت بتغطيته بطرحة بيضاء وبمجرد أن دخلت غرفة مدير المستشفى ورأت أحمد بانتظارها دارت بها الدنيا وشعرت بساقيها تتخاذلان ولا تقدران على حملها فصرخت وهي تترنح في خطواتها: أحمد.. أحمد بك.

ارتمت على صدره تبكي بكاء مرًّا، كان أحمد قد علم من الطبيب العراقي مدير المستشفى أنها أصيبت بطلق ناري في كتفها وأنها ليست إصابة خطيرة، قبلها أحمد في جبينها ودعاها للجلوس في مقعد قريب، تأملته بنظرة حب وامتنان وقالت من خلال دموعها:

- أرجوك، طمئني على أمجد وروان.

- بخير وينتظران عودتك بفارغ الصبر.

كان الطبيب العراقي متعاطفًا معها فقال:

- والله، لـو كان الأمـر بيـدي لأطلقـت سراحهـا الآن وسـمحت لكـما بأخذها ولكن المستشفى تحت حراسة مشددة كما ترون حتى لو قمنا بتهريبها فلن يسمحوا لها بالخروج من بغداد.

- والعمل؟

قالها أحمد حائرًا فرد الطبيب:

- رئيـس الـوزراء الدكتـور إبراهيـم الجعفري هـو الوحيد الـذي يمكنه إصدار أمر فوري بالإفراج عنها.

التفـت أحمد إلى وائل فهز رأسـه بثقة ولم يفصـح عـما يفكر فيه، تأمل أحمد وجه بيلسان الذي أصابه الذبول والهزال وسألها:

- ألا تحتاجين طعامًا أو ملابس؟

- لا.. في الحقيقة الدكتور جاسـم قام بالواجب فسـمح للدكتورة سهيلة زوجة أخي بزيارتي وتزويدي بما أحتاج إليه.

- اطمئني، سـأفعل المسـتحيل لكي أخرجك من هنـا وترجعي معي إلى القاهرة سالمة بإذن الله.

- جزاك الله عني كل خير وسدد خطاك.

انتهت الزيارة ورجع أحمد بصحبة وائل إلى السفارة وأبلغا السفير إيهاب الشريف بتفاصيل ما حدث، فهز رأسه مبتسماً وقال بنبرة تفاؤل:

- الحمـد لله أنهـا بخير، غدًا بـإذن الله عندي موعد لمقابلـة رئيس الوزراء ابراهيم الجعفري بمكتبه في المنطقة الخضراء وسأعرض عليه مشكلة بيلسان وأقـدم له هـذه الأوراق التي تثبت حصولها على الجنسـية المصرية وأملي كبير

في تجاوبه وإفراجه عنها من منطلق الحرص على تدعيم أواصر العلاقات بين بلدينا ورأفة بطفليها.

صافح السفير وشكره ثم ركب السيارة مع وائل الذي أوصله إلى باب الفندق ثم انطلق إلى سكنه الخاص في الجانب الغربي من بغداد بحي العامرية.

صعد أحمد إلى غرفته، شعر بالتعب فتمدد على السرير وفجأة تذكر أنه نسي شيئًا مهمًّا، أمسك الهاتف وطلب زوجته التي سألته معاتبة:

- لم تتصل بي وأنا قلقة عليك.

- اطمئني يا حبيبتي، أخيرًا وصلت إلى بيلسان ولكنها مصابة في كتفها وتعالج بالمستشفى.

- يا للمسكينة.

- غدًا سيقابل السفير المصري رئيس الوزراء العراقي وأتعشم أن يحصل منه على موافقة بسفرها.

- إن شاء الله، حاول ألا تتأخر واتصل بي.

- حاضر.

كان الطبيب العراقي يعرف ما قامت به بيلسان وحكي لهما كيف كانت «سبُعة» وضربت جندي المارينز الذي حاول الاعتداء عليها ضربة أعجزته ثم هربت فحاول الانتقام منها وأطلق عليها النار، تمدد أحمد وأسند ظهره على شباك السرير وقال في نفسه:

- يا اااه، بيلسان هذه بطلة، امرأة ولا كل النساء.

فتح التليفزيون وظل يتابعه ويقلب القنوات المتاحة من خلال الدش المركزي للفندق، لم يجد شيئًا يجذبه، أغلق الجهاز وأطفأ النور ثم استسلم للنوم.

في الصباح تناول الفطور ثم خرج يتمشى في الشوارع القريبة من الفندق، اشترى صحيفة عراقية وظل يمشي في شارع السعدون، محلات الملابس ودور السينما والمطاعم ومكاتب السياحة والسفر إما أغلقت أبوابها وإما سدتها بالطوب والأسمنت، خوفًا من السرقة، الشارع شبه مهجور، وصل إلى حاجز أمني، انتحى جانبًا وفتح الجريدة يقرأ عناوينها ثم آثر العودة إلى الفندق، فاستدار ورجع، في بهو الفندق، سمع ممدوح يناديه:

- أستاذ أحمد.

- ممدوح أهلًا بك.

- أين ذهبت؟

- خرجت أتمشى وعدت حزينًا لما جرى لهذه المدينة الجميلة.

- جاء رجل وسأل عنك ثم قال إنه سيرجع بعد ساعة فانتظره.

- ألم تعرف اسمه؟

- اعتقد أنه نفس الرجل الذي خرجت معه بالأمس.

- سأنتظره هنا بالبهو.

- ألا تشرب شيئًا.

- شايًا.

جلس يتصفح الجريدة وقبل أن يكمل كوب الشاي فوجئ بالأستاذ وائل يدخل مبتسماً وخلفه بيلسان وقد بدلت ملابسها واستعادت رونقها الجميل، نهض فرحًا فجرت إليه واحتضنته وأخذت تقبله في خديه بحب صادق ثم قالت:

– أنت إنسان رائع وسوف أبقى أسيرة شهامتك وإنسانيتك طول العمر.

– ألم نتفق أنني أخوك الكبير؟

– ونعم الأخ، حفظك الله ورعاك دومًا لي.

– تفضلي.

التفتت نحو وائل، فتدارك أحمد:

– تفضل يا أستاذ وائل..

– لا. الأوامر أن تأتيا معي لمقابلة جناب السفير، هيا معي.

أوضح لهما السفير أنه تعهد لرئيس الوزراء العراقي بأن تسافر السيدة بيلسان الليلة أو غدًا على أقصى تقدير، المهم أن تغادر بغداد خلال ثمانٍ وأربعين ساعة، فهزت بيلسان رأسها وقالت بحسرة:

– هل نسي أنها بلدي ومسقط رأسي، لماذا يطردني منها؟

– بالعكس، الرجل يخشى عليك ويتمنى لك أن ترجعي سالمة إلى طفليك.

قالها السفير مهدئًا فقامت تشكره على ما بذله من أجلها ثم صافحته وخرجت مع أحمد الذي أصرَّ أن ترجع معه إلى الفندق مباشرة، وحاولت

أن تقنعه بالذهاب معها إلى بيت خالها فرفض بشدة وطلب منها أن تتصل بزوجة أخيها أو بمن تشاء ليأتي ويودعها في الفندق، ثم ختم كلامه قائلًا:

- بيلسان يا حبيبتي، اعذريني، فما سمعته هنا وما جرى لك يجعلني أخاف عليك ولن أسامح نفسي إذا أصابك مكروه بعد الآن.

- وأنا طوع أمرك، سأنفذ كل ما تطلبه.

حجز لها غرفة بالفندق مجاورة لغرفته، ثم جلسا في انتظار وصول الدكتورة سهيلة زوجة أخيها، تأمل أحمد وجهها المشرق وقال مشاكسًا:

- أتعرفين أن بيلسان المصرية أجمل من بيلسان العراقية؟

- يا ااه.. إلى هذه الدرجة ذبل وجهي وأصبح شاحبًا.

- لا.. إنني أمازحك، أنت زهرة متفتحة وسيبقى جمالك مشرقًا ومتألقًا على الدوام.

- وأنت ستبقى في نظري مثالًا للرجولة والشهامة.

- دعك من هذا الكلام، لقد وعدتني أن تنفذي ما أطلبه منك، فهيا نبحث عن مأذون ليكتب عقد زواجنا ونسافر من هنا إلى إيطاليا أو فرنسا ونقضي شهر العسل.

ضحكت من قلبها ضحكة صادقة وقالت:

- لا.. مستحيل.

- لماذا؟ ألم تخبرك سعاد موافقتها على زواجنا؟

- سعاد أخت عزيزة وزوجة رائعة، إنها تحبك بجنون يا أستاذ أحمد، صدقني، لا توجد زوجة تخطب لزوجها إلا إذا كانت تموت فيه عشقًا.

- أعـرف وأنـا أيضًا أحبهـا ولكني أحببتـك أنت أيضًا وأشـعر أن حلم حياتي سيتحقق على يديك أنت وسيكون لي طفل رائع منك أنت.

- صدقنـي أصبحـت تحتـل مكانًـا في قلبـي ولكنـي لن أفاجـئ الطفلين أو حماي وحماتي بقرار خطير كزواجي منك.. اصبر.

حينئذ دخلت عليهما الدكتورة سـهيلة فاحتضنتها بيلسان وقبلتها بحرارة ثم أشارت إلى أحمد قائلة:

- هذا هو منقذي من الهلاك.

مدت سـهيلة يدهـا وصافحته وأفاضت في شـكره والثنـاء عليه ثـم دعته للانتقـال معهما إلى بيتها الآن لتناول الغداء والاحتفال بالإفراج عن بيلسـان وبـكل ما يملكـه أحمد من لباقة حـاول أن يعتذر لكنهـا أصرت وظلت تلح عليه حتى استحى منهـا فوافق وخرجوا معًا، أشـارت إلى سيارتها فركبت بيلسان بجانبها وركب أحمد في الخلف لتنطلق بهم السيارة إلى البيت، لم يشعر أحمد بلحظة ملل واحدة، وكان حديثه معهما ممتعًا وهو فخور بإنجازه الرائع ونجاحـه في تخليص بيلسـان مـن ظلمة السـجن، وعلى البعـد كانت زوجته سعاد تشـعر بالقلق عليه فاتصلت به وطمأنها بلهجة الظافر المنتصر ثم ناول التليفون لبيلسـان لكي تحدثها مباشرة وتشـكرها على تشـجيعها لزوجها أن يغامر ويقوم بهذه الرحلة الخطيرة لإنقاذها.

عـاد أحمد إلى الفندق تاركًا بيلسـان تبيت هـذه الليلة مع ابنة خالها قبل أن تودعها، وقد تعهدت له بيلسـان ألا تخـرج من البيت إلا في الصباح متوجهة إلى الفنـدق، كان ينتظرهـا بقلق شـديد حتـى وصلت في صباح اليـوم التالي

وكان جالسًا في بهو الفندق وبجانبه حقيبته استعدادًا للرحيل، صافحته بحرارة وقالت:

- أنا جاهزة، هيا بنا.

- اجلسي حتى يتصل وائل.

- موظف السفارة؟

- نعم، فسوف يأخذنا بسيارته ولكنه تأخر.

- اتصل به.

أخرج هاتفه المحمول وضغط أزراره ثم وضعه قرب أذنه وقال:

- ألو.. أستاذ وائل، صباح الخير.

- من؟ أستاذ أحمد، آسف جدًّا لن أتمكن من المجيء إليك، أرجوك، تصرف أنت.

- أستاذ وائل.. هل أغضبتك أو حدث مني شيء.؟!

- لا، أبدًا، لدينا مشكلة، اعذرني.

- ألا يمكنني المساعدة؟

- هه، هل السيدة بيلسان معك؟

- نعم.

- أرجوك خذ تاكسي يوصلكما إلى السفارة.

- حالًا سوف نأتي.

سألته بيلسان بقلق: هل حدث شيء؟

- نعم.. لكن لا أدري ماذا حدث، إنه يطلب ذهابنا إليه في السفارة.

- هيا بنا.

كانت السفارة مضطربة، الموظفون مرتبكون، يتحركون بعصبية، دخلا يسألان عن مكتب وائل، فأشار لهما أحد الموظفين إلى باب غرفة، اتجها إليها، طرق أحمد الباب فسمع صوته:

- ادخل.

..كان يتحدث في التليفون وملامحه يعتصرها الحزن والتوتر، أشار لهما بالجلوس، لم يستوعبا ما حدث وضع سماعة التليفون والتفت إليهما يقول:

- حدثت كارثة.

- أعوذ بالله.

- مساء أمس تم خطف السفير إيهاب الشريف.

- كيف وأين حراسته؟

- كان عائدًا إلى مسكنه بشارع الربيع في حي المنصور وتوقف بسيارته أمام كشك يبعد عن منزله 70 مترًا ليشتري جريدة فهجم عليه ملثمون وخطفوه تحت تهديد السلاح.

- أكان بلا حراسة؟

- كان مطمئنًّا، فمصر ليست طرفًا في أي صراع سياسي وليست منحازة لأحد.

- والعمل؟

- لقد أبلغنا الجهات المسئولة وجارٍ البحث عنه.

- سوف أرجئ سفرنا حتى أطمئن عليه.

- عندي فكرة، انتظرا حتى أعرضها أولًا على القنصل العام.

خرج وبعد لحظات رجع يسألها:

- مدام بيلسان، هل قابلت شقيقك؟

- لا، بكل أسف.

- معلوماتي أنه قيادي في المقاومة.

- نعم.

- ربما نحتاج مساعدته.

- وهل لأخي علاقة بخطف جناب السفير؟

- لم أقل هذا ولكنه قد يساعدنا في التواصل مع الخاطفين والتفاوض معهم.

- هذا يتطلب أن أرجع إلى بيت خالي وأحاول أنا وزوجته سهيلة الاتصال به.

- وإن وصلت إلى أية معلومة فأبلغيني.

انقضت هذه الليلة وبيلسان تحاول الاتصال بأخيها ولا يأتيها منه رد وحينما تعبت قرب الفجر وقررت أن تدخل لتنام رن الهاتف وسمعت صوت عدنان:

- سهيلة؟

- بيلسان يا عدنان.

- حبيبتي، كيف حالك؟

- السفير المصري تم خطفه مساء أمس.

- أعرف.

- أرجوك ساعدنا في إعادته.

- بيلسان، انتبهي لكلامك، أخوك ليس إرهابيًا.

- لا أقصد والله لا أقصد، قلت ساعدنا بأن تدلنا على من خطفه إن توفرت لديك معلومات.

- لا، ليس لدي معلومات ولا أظن أحدًا من المقاومة العراقية يقترف هذا العمل رغم اعتراضنا على سياسات الحكومة المصرية ومساعدتها لحكومة العراق العميلة للأمريكان.

- إلى من تلجأ السفارة ليساعدها في إطلاق سراحه؟

- اذهبي إلى خالك حيدر فقد تكون لديه معلومات.

- وأنت.. متى أراك؟

- لا أدري وربما لا تأتي فرصة فعودي لطفليك.

- انتبه لنفسك يا عدنان.

انقطع الاتصال، فجلست تبكي حتى الصباح ولما تأخرت، اتصل بها أحمد يستعجلها ثم توجها إلى السفارة وأبلغت وائل بما سمعته من أخيها عدنان، استأذنها لعرض الأمر على رئيسه المباشر ثم عاد وسألهما:

- هل لديكما استعداد لتأجيل السفر للقاهرة؟

- نعم.

ردًا عليه بصوت واحد فقال:

- إذن فلنذهب إلى الفلوجة لعل خالك يساعدنا في التواصل مع الخاطفين.

- نعم، خالي من أعيان الفلوجة وسوف يساعدنا.

- انتظرا.. حتى أكتب مذكرة للقنصل العام وأثبت فيها تفاصيل مهمتي معكما في الفلوجة.

تركهما يكملان شرب الشاي وغاب داخل مكاتب السفارة قرابة نصف الساعة ثم رجع يسألهما:

- مستعدان؟ هيا بنا.

■■■

12

قـاد وائل سـيارته ذات الأرقام الدبلوماسـية وبجانبه أحمـد وفي الخلف جلست بيلسان، نظر وائل في مؤشر الوقود ثم استدار واتجه إلى محطة الوقود، زود سيارته بالبنزين ثم انطلق فعبر جسر الرصافة، والتفت إلى أحمد قائلًا:

- بماذا يذكرك هذا الجسر؟

- يذكرني بكوبري قصر النيل في القاهرة أو كوبري الجامعة في الجيزة.

- هـذا أيضًا جسر له تاريخ عريق في بغداد وسـمي بالرصافة لأنه يقع في حي بهذا الاسم ويقابله الكرخ من الجهة الأخرى.

التفت أحمد إلى بيلسان وسألها:

- إذن حاج غفور أطلق اسـم كافيه الكـرخ على مشروعه في القاهرة لأنه أتى من الكرخ.

- نعم، هذا صحيح.

- جميل أن يعتز المرء بموطنه ويتسمى باسمه.

تركـوا بغـداد وراءهم وانطلقوا عـلى الطريق السريـع، كان من المفترض أن يصلـوا الفلوجـة بعد نصف سـاعة، فالمسـافة بينهـا وبين بغـداد أقل من سـتين كيلو مترًا، ولكنهـم فوجئوا بحواجز ونقاط تفتيـش من جنود المارينز تسـد عليهـم الطريـق وتوقفهـم للتأكد مـن أنهم لا يحملون أسـلحة، وفي كل مرة يرفعون جوازات سـفرهم المصرية، وكان قائـد المارينز يكتفي بمضاهاة

ملامح وجوههم مع صورهم بجوازات السفر ثم يهز رأسه أو يبتسم ويشير عليهم بالمرور ولكنهم بعد أن قطعوا نصف الطريق، اعترض سيارتهم كمين من الحرس الخاص بالحكومة العراقية، وبمجرد أن أظهروا جوازات السفر، أمرهم الضابط العراقي بالرجوع فاستعطفه وائل:

- يا أفندم، السفير المصري تم خطفه ليلة البارحة ونحن في مهمة خاصة للبحث عنه.

- أين تريد أن تبحث عنه؟

- نتوقع أن يكون الخاطفون في الفلوجة.

- وهل دورك أن تتفاوض مع الإرهابيين؟

- السفير في خطر ونريد أن نفعل شيئًا لإنقاذه.

- هذا ليس دورك، أبلغ الحكومة العراقية ودعها تقم بدورها.

- لقد أبلغناهم ولكننا نساعد فقط.

- غير مصرح لكم بمغادرة بغداد.

- يا سيدي، الموقف حرج والوقت ليس في صالحنا، لو أصيب السفير بضرر - لا قدر الله - فسيقع اللوم على حكومتكم.

- أحضر لي تصريحًا أسمح لك بالمرور.

- أهذا آخر كلام عندك؟

سألته بيلسان وهي تطل من نافذة السيارة فأجابها بلا تفكير:

- نعم.

- عد بنا يا أستاذ وائل.

تنهد وائل في غيظ ثم قاد السيارة واستدار بها ليأخذ طريق العودة وقال غاضبًا:

- أقول له السفير مخطوف وكأنه لم يسمع شيئًا، أهذا له عقل، له مشاعر؟ أشك.

- أعرف طريقًا آخر يوصلنا إلى الفلوجة ولكنه غير ممهد، فهل سيارتك تحتمل؟

- المهم أن نصل.

- أترى بستان النخيل هذا، بعده مباشرة سنأخذ طريقًا آخر.

مضى الوقت، وبيلسان تخفف عنهما وعورة الطريق، بحديثها الحلو عن ذكرياتها في بغداد وفي الفلوجة التي وصفتها بأنها مدينة المساجد وكيف أن أهلها طيبون وكرماء وترجع أصولهم إلى قبائل عربية عريقة وعشائر سنية مثل: الدليمي والكبيسي والمحامدة والعزاوية والفلاحي وآل عيسى وآل علوان وآل نمر والمنذر وآل فهد وآل عامر.

وبعد حوالي ساعة، مروا خلالها بقرى صغيرة وزراعات وجسور وطرق ترابية مليئة بالحفر التي أنهكت السيارة، لاحت لهم من بعيد مآذن وقباب وبيوت الفلوجة، وكلما اقتربوا أكثر ازدادت الصورة وضوحًا وظهرت آثار الحرب على ما تبقى من قباب ومآذن، وفجأة انشقت الأرض عن ثلاثة رجال ملثمين يحملون البنادق الآلية، صوبوها نحو السيارة وأمروهم بالنزول، نظر كبيرهم في جوازات السفر ثم التفت إلى بيلسان:

- أين جواز سفرك العراقي؟

- كيف عرفت أنني عراقية؟

- أعرفك جيدًا، لماذا أتيت مع هذين؟

- السفير المصري مخطوف وجئنا نلتمس مروءة وشهامة وكرم أهل الفلوجة.

- ألا تعلمين أن الأمريكان يتمركزون في الجزء الجنوبي الشرقي من المدينة؟

- لقد اضطررنا للمجيء من هنا بسبب الأكمنة الكثيرة على الطريق السريع.

- أليس لكم اتصال بالأمريكان؟

- لسنا خونة أو جواسيس.

- أتعرفين أحدًا من أهل الفلوجة؟

- خالي هو حيدر عطية المنذر عين أعيان الفلوجة.

- وأنا.. من أكون؟

- أنت.

- إن لم تعرفي فسأقبلك أمام هذين الرجلين وأشد شعرك كما كنت أفعل وأنت طفلة.

- من؟ إياد.. إياد ابن خالي.

صرخت بيلسان بفرح وارتمت في صدره فرفع اللثام عن وجهه وقبلها ثم قال:

- آخر ما كنت أتوقعه أن أراك هنا.. أين زوجك؟

- الله يرحمه.

- إذن، عدت لبغداد.

- لا، أنا في مهمة إنسانية وأرجو أن يساعدنا خالي في إطلاق سراح سفير مصر.

أشار إلى زميليه فانصرفا ثم ركب السيارة إلى جانب بيلسان ودلهم على طريق جانبي يمر خلال غابة من أشجار البرتقال وقال:

- هذا الدرب يوصلنا.. خالك سيفرح بك.

لم تتوقع بيلسان أن ترى خالها بلباس المحارب، كان يراقب السيارة وخرج من المضيفة وهي بيت صغير يتوسط البستان، اعترض السيارة موجهًا فوهة بندقيته نحوهم وكان يرتدي سروالًا وسترة ضيقة ويلف شريطًا من الذخيرة على كتفه وصدره، وناداه من داخل السيارة ابنه إياد ثم نزل، دعاهم المحارب العجوز لدخول البيت قائلًا:

- تفضلوا، كان لي قصر فخم في أرقى شوارع الفلوجة وهدمه الأمريكان الأوغاد فانتقلنا إلى هذا البيت الذي كنا نأتيه مرة واحدة في السنة عند جمع الثمار.

أخبرته بيلسان بالغرض الذي أتوا من أجله فتغضنت ملامحه وتكدر وجهه ثم قال:

- للأسف، المقاومة مشغولة بما هو أهم، المحتل الأمريكي ذاته.

قال وائل وهو يتحسس كلماته:

- حيدر بك، نحن ندرك صعوبة الموقف ولكننا قصدناك لتدلنا كيف نصل لمن نتفاوض معه والسفارة مستعدة لتلبية كل مطالبهم.

- سنبذل كل ما نقدر عليه وليوفقنا الله.

- قبل أن نأتي حدثتنا ابنته إنجي من القاهرة ولا أستطيع أن أصف لك حالة الرعب والهلع التي أصابت زوجته وابنتيه: إنجي وهايدي.

- كان الله في عونهم وأدعو الله أن يوفقنا لفك أسره فيرجع لهن سالمًا.. تفضلوا.

دعاهم لدخول المضيفة فتبعوه وخلفهم ابنه إياد، جلسوا في قاعة فسيحة مفروشة بالسجاد والطنافس المزخرفة، استأذنت منهم بيلسان لتذهب إلى زوجة خالها وبناته فصحبها إياد وبعد قليل رجع حاملًا صينية عليها أكواب وإبريق الشاي وخلفه بيلسان تحمل صينية عليها فطائر التمر، فنهر الشيخ ولده:

- أهذا كرم الفلوجة يا إياد؟ هيا، اذبح شاة على شرف ضيفينا وعجل بالغداء.

ابتسم إياد في هدوء وقال:

- فعلت والله يا أبي ولكن بيلسان تخشى ألا يكون أستاذ وائل قد أفطر.

قام بتوزيع الشاي عليهم فاعتدل الشيخ حيدر في جلسته وقال بنبرة صدق:

- أهلًا وسهلًا برائحة الأحبة.

- أهلًا بك يا حيدر بك.

- والله كنا ونحن فتية صغار نتوق شوقًا لرائحة أي شيء يأتينا من مصر الحبيبة ولم يكن يأتينا منها إلا الشعراء والمدرسون والأطباء وكانت مصر دومًا قبلة لمن يريد أن يرتقي في العلم والأدب.

- مصر هي قلب العروبة النابض.

- هـذا صحيـح، لذلك يحزننا تراجعها عن دورهـا القيادي وابتلاؤها في العقود الأخيرة بحكام ضعاف لا يعرفون قدرها ويرضخون لقوى الإمبريالية التي تسعى لتقزيمها لعلمهم أن مصر هي القاطرة التي تقود العالم العربي كله إلى التحرر والتقدم.

- هل زرت مصر يا حيدر بك؟

- نعم ودرسـت في جامعة القاهرة، كنت تلميذًا للعظيمة الدكتورة سهير القلماوي وكانت مصر هي مـصر، كانت مصر عبد النـاصر، أبو خالد ذلك الفهـد الأسـمر، رمز البطولة والوطنية، كان قوميًـا صادقًا تآمرت عليه قوى البغي والعدوان.

- خالي حيدر هو الذي أقنع أبي بالموافقة على زواجي من حاتم.

- نحـن كصابئـة لا نزوج أو نتـزوج إلا من ملتنا وبيلسـان وضعتنا أمام اختبـار صعب ولكنـي تعاطفت معهـا لإدراكي أن مـصر الكنانة هي أرض السماحة، تلتقي على نيلها الخصب كل الأديان.

- أتعـرف يـا حيـدر بـك أن كلامـك عـن مصر يجعلنـي أشـعر بالخجل كمصري لأننا نحن المصريين لا نقدر مصر حق قدرها.

- وهـذه كارثـة، أتعرف لماذا أسـتبعد أن تكـون إحدى فصائـل المقاومة العراقية هي التي خطفت سفيركم؟

- لماذا؟

- لأنني متابع جيد للسياسـة المصرية وأعرف أن السـفير إيهاب الشريف عندمـا كان قائـمًا بالأعمال في سـفارة مصر بالكيـان الصهيـوني، كان له دور

وطني ونجح في تجنيد اثنين من ضباط الجيش الإسرائيلي وسرب من خلالهما معلومات مهمة عن أحدث الأسلحة في إسرائيل.

- فعلًا هذا حدث وعندما اكتشفت إسرائيل ذلك كانت مصر قد سحبت إيهاب الشريف من هناك.

- وما كان يصح أبدًا أن تجازف وزارة الخارجية المصرية وترسله إلى العراق الآن وهي تعلم أنه مخترق من الموساد وكل أجهزة المخابرات.

- أتقصد أن الموساد وراء خطف السفير؟

- توقعت ذلك منذ وصول إيهاب الشريف وها هو قد اختطف ولا أستبعد أن يكون قد تم ترحيله إلى الكيان الصهيوني.

- هذا كلام خطير جدًّا يا حيدر بك.

- يا سادة الغزو الأمريكي جعل العراق ساحة مفتوحة لكل الأجهزة المعادية ورغم ذلك سألتقي الليلة قادة بعض فصائل المقاومة وسوف أسألهم عن حقيقة ما حدث وإن كان أحدهم هو الذي خطفه فسأعمل على استعادته مهما كلفني الأمر.

- جزاك الله عنا خير الجزاء.

كان الشيخ حيدر متحدثًا لبقًا ولم يشعرا بالوقت حتى حان موعد الغداء، فدخل بعض رجاله يحملون الصواني وفوقها لحم الخروف المشوي محاطًا بالأرز الأبيض ورائحة الشواء الطيب تفوح وامتد البساط فأكلوا بلذة واستمتاع ثم قام رجلان فأحضرا إبريقًا وحوضًا صغيرًا وقام أحدهما بصب الماء ليغتسل الضيفان ثم الشيخ حيدر وقدم لهما الثاني الفوط ليجففا أيديهما ثم صب لهما بعض العطر وكانت بيلسان قد انضمت للحريم داخل البيت وبعد

تناول أكواب الشاي سمعوا صهيل حصان، فقام الشيخ حيدر واستأذنهما للتوجه إلى عامرية الفلوجة حيث يلتقي هناك بزعماء المقاومة تاركًا معهم ابنه إياد الذي قال بفخر:

- لا يغرنكما تقدمه في العمر، أبي مازال فارسًا.

- واضح.

- وهذه ميزة تساعده كثيرًا في التنقل بين البساتين دون أن يرصده أحد.

- حفظه الله ورعاه.

امتد الحديث بينهم فحكى لهما إياد عن الجرائم التي ارتكبها الأمريكان في الفلوجة وكيف ضربوا أهلها بكل الأسلحة المحرمة فقتلوا المئات وأصابوا الآلاف وهدموا أكثر من نصف بيوت المدينة فحولوها خرابًا وشردوا أهلها لا لشيء إلا لأنهم شجعان وهبوا يطردون قوات الغزاة من مدينتهم ويرفضون الاستسلام لهؤلاء الصهاينة الأوغاد.

مر الوقت وحل الظلام ولم يرجع الحاج حيدر ولم يكن أمامهما إلا المبيت، كان إياد يخرج للحظات ثم يرجع فيطمئنهما وحينما ظهر عليهما الإرهاق والتعب، أتى بمراتب ووسائد إسفنجية افترشها في المضيفة ونام معهما حتى الصباح، فأيقظهما صهيل الفرس، واستبشرا بقدوم الشيخ حيدر، الذي تناول معهما الفطور وهو يتحدث بثقة:

- ما قلته لكما بالأمس صحيح مائة بالمائة، المقاومة العراقية بريئة ومنذ لحظات أذيع شريط منسوب إلى تنظيم القاعدة.

- وما مصلحة تنظيم القاعدة من خطف السفير المصري؟

- للأسف، العراق أصبح ساحة مفتوحة وليس صعبًا أن تجند الموساد تنظيم القاعدة بواسطة حركة جهادية أخرى وتدفعها لخطف السفير وتسليمه لهم دون أن يدركوا أنهم يسلمونه للموساد، صدقوني الموساد اخترقت الجماعات الإسلامية.

- والعمل؟

- أعلنت الخارجية المصرية اليوم أن جهودًا حثيثة تبذل لإطلاق سراح السفير، فربما توصلوا لتفاهمات مع الخاطفين الحقيقيين.

- إذن يجب أن نرجع إلى بغداد.

- انتظرا حتى نسأل عما إذا كانت بيلسان ستبقى معنا أم سترجع معكما.

جاءت بيلسان فطلبت منهما البقاء ليلة أخرى لأن أخاها عدنان سيأتي الليلة وهذه فرصتها لكي تراه، التفت أحمد إلى وائل وسأله:

- أنا سأبقى معها فإن كنت تريد..

- لا سأبقى معكما.

شكرتهما بيلسان واختفت داخل البيت، ليواصل خالها وابنه إياد الترحيب بهما في جو من الأخوة وكرم الضيافة، رغم ذلك لم يَخفَ عليهما أن هذا البيت محاط بأعداد غفيرة من الرجال وأن هناك حركة مستمرة ليل نهار داخل البيت وخارجه، لم يدرك وائل طبيعة هذه الأصوات والقعقعة والنداءات التي سمعها طوال الليل إلا عندما لمح من خلال النافذة قطيعًا من الجمال تمر حاملة على ظهورها صناديق ذخيرة وأسلحة، حينئذ أدرك أن الشيخ حيدر مسئول عن أحد مخازن الأسلحة المخبأة منذ الأيام الأخيرة من حكم صدام حسين، تظاهر وائل بأنه لم ينتبه لرؤية الجمال حتى لا يبعث القلق

في نفـس مضيفه ولكنه بدأ يشـعر بالتوتر والخـوف، إذ إن القوات الأمريكية لـو رصدت هذا المكان فسـوف تهاجمه بـضراوة وحينها لا يعلـم إلا الله ماذا سيكون مصيرهم.

كان وائـل على مـدى الأربـع والعشرين سـاعة الماضية يحـاول الاتصال بزملائـه في السـفارة دون جـدوى وظهر عليـه التوتر والقلق رغـم تنبيه إياد له بأن شـبكة الاتصال اللاسلكي في تلك الناحية ضعيفة ولا تعمل بسهولة، لذلـك غمرتـه السـعادة، حينما فاجـأه إياد في المسـاء بجهاز تليفـون من نوع «الثريا»، قدمه له محذرًا:

- أسـتاذ وائل، اتصل بشـخص واحـد ولا تُطِل المكالمة حتـى لايتم تتبع المكالمة.

- يا ه.. أشكرك.

تنـاول الجهاز بفرح وحـاول الاتصال دون جدوى، فاقترح عليه أحمد أن يخرج ويمشي في البستان وهو يحاول الاتصال حتى يتم التقاط الإشارة.

في ضـوء القمر، مشـى وائل وهو يضغـط أزرار الهاتف ويحاول الاتصال وفجـأة دوى صـوت انفجـار هائل، حاول أن يختبئ وسـط الأشـجار، رأى صاروخًا يسقط خلف البيت مباشرة، جرى مذعورًا وحاول أن يبعد، استمر القذف الصاروخي، ظل وائل يجري حتى وصل إلى سيارته ركبها وحاول أن يديرها لكنه شـاهد سربًا من الطائرات الأمريكية تحلق متجهة نحو البسـتان وتطلـق الصواريـخ على بيت الشـيخ حيدر، خشي أن يدير السـيارة فيصيبها صاروخ، ردد الشـهادة وقبع في السـيارة منتظرًا الموت، أقبل أحمد مهرولًا في هلع، فأشار له وائل، كان يلهث وارتمى بجانبه قائلًا:

- هيا اخرج بنا من هنا.

- مستحيل، لو تحركت السيارة فسيتم تدميرها.

- هذا كابوس رهيب.

في لحظات كانت الصواريخ والقنابل تضيء المكان كأنه وقت الظهيرة وتوالت الانفجارات والصراخ واختفى البيت خلف سحابة من الدخان يتوسطها عمود من اللهب الأحمر وحوله نافورات وأعمدة متعرجة من الدخان واللهب الأبيض، حاول أحمد أن يسد أذنيه من هول وشدة الانفجارات وملأت صدره رائحة الدخان فأخذ يسعل وشعر بالاختناق التفت إليه وائل قائلًا:

- أتشم رائحة الدخان؟

- تشبه رائحة الثوم.

- هذه قنابل الفوسفور الأبيض وهي محرمة دوليًا وتذيب أجسام البشر فلا يبقى منهم إلا هياكل عظمية متفحمة.

- لعنة الله على الأمريكان الملاعين.

- أرى طائرة تهبط هناك وخبرتي العسكرية السابقة تقول إنهم سيمشطون البستان بعد قليل ولو فعلوا فسيقتلوننا.

- هيا نهرب.

- انزل بسرعة من السيارة.

قاما بالجري وسط أشجار البستان مبتعدين قدر الإمكان، كان الخوف يمدهما بقوة خارقة واستمرا في الجري حتى نال منهما التعب فتوقفا وهما

يلهثان ويتنفسان بصعوبة، مرت لحظات وهما يتلفتان بذهول ثم حرك أحمد شفتيه بصعوبة:

- بيلسان.

- لا، انس، لن يفلت أحدهم من هذا الدمار.

- ربما تكون قد جرت مثلنا.

- أنت واهم فالضرب مازال مستمرًا.. هيا، هيا نهرب قبل أن يلحقوا بنا.

واصلا الهرب وكلما تعثر أحدهما أو سقط مدَّ الآخر له يد العون وحفزه على الجري حتى أشرقت الشمس، فجلسا تحت شجرة توت، يلتقطان الأنفاس ويبحثان عن وسيلة تنقلهما إلى بغداد. اهتدى وائل إلى فكرة، فطلب من أحمد أن يساعده ليصعد فوق الشجرة وظل يتلفت ويستكشف المكان ثم نزل يقول:

- عرفت كيف نصل إلى الطريق العام.

- هيا بنا.

واستمرا في السير حتى أدركا الشارع، فوقفا يشيران إلى السيارات، أخيرًا توقف لهما سائق تاكسي وانطلق بهما نحو العاصمة.

■■■

13

كان الهجوم مباغتًا وسريعًا، فأشاع الهلع والذعر، تحصن الرجال في خنادق وحفر بين الأشجار وجرت النساء والأطفال تلتمس النجاة في عمق البستان، لكـن القذائف والصواريخ التـي انهمرت فوقهم كالمَطـر، أحالت المكان إلى قطعـة من الجحيم، وسرعان ما سـكتت مدافع وبنـادق المقاومة فهبط العدو بمروحياته وانتشر جنود المارينز المدججين بالرشاشـات والقنابل يمشـطون المكان الذي تحول إلى أنقاض تتوسـطها برك من الدماء وأشلاء لجثث الموتى وتوغل الأعداء في البستان، فحاصروا مَنْ هرب وقبضوا على بعض الجرحى والنسـوة والأطفال المذعورين، ومرة أخرى وجدت بيلسـان نفسها تضرب وتهان كرامتها ثم تقيد وتحمل إلى سيارة عسكرية وهي معصوبة العينين، ومع إطلالة الصباح كانت محشورة مع أخريات في زنزانة ضيقة بأحد السجون.

في تلـك اللحظـة كان أحمـد يجلس عـلى حافة السريـر بغرفتـه في الفندق ويستعيد أهوال ليلة البارحة فتنساب الدموع على خديه ويحدث نفسه:

– جاءت لتموت في بلدها، أكان الموت يناديها أم أنني أخفقت في حمايتها، ماذا سـأقول لطفليهـا؟ جئت لأخرجها من السـجن وأخرجتهـا فعلًا، لماذا تموت هكذا؟ ما ذنبها؟

انتبه على رنين الهاتف، تناوله وضغط الزر فأتاه صوت وائل:

– أما زلت بالفندق؟

- أخبرني موظف الاستعلامات أن أول طائرة للقاهرة في الثامنة مساءً.

- أنصحك أن تغادر على أية طائرة لأية عاصمة قريبة من القاهرة، انجُ بنفسك من هذه الأرض المشتعلة بالحرائق والتفجيرات.

- أنا حزين جدًّا على بيلسان يا وائل بك.

- هذا قدرها ولم نكن نستطيع أن نفعل لها شيئًا.

- أتظنها قد ماتت فعلًا؟

- أكيد، فالبيت وما حوله تحول إلى قطعة من جهنم، إنها أسلحة فتاكة شديدة الحرق.

- ليتني أخذتها وسافرت قبل خطف السفير.

- على فكرة، أذاعوا بيانًا منذ لحظات أعلنوا فيه قتل السفير.

- قتلوه؟!

- للأسف.

- وهل هم أتباع الزرقاوي؟

- البيان يقول ذلك لكن لا يعلم الحقيقة إلا الله.

- هل كلام حيدر بك كان صحيحًا؟

- ربما، فالحقائق لن تتكشف إلا بعد فترة من الزمن.

- حياتنا تحولت إلى عبث.

- أستاذ أحمد، كان بودِّي أن أودعك في المطار لكن ظروفي لن تسمح، أرجوك غادر على أول طائرة، أنا سعيد بمعرفتك وسأداوم الاتصال بك.

أغلق الموبايل وقام بجمع ملابسه وأغراضه وهو يردد في حسرة:

- بيلسان قتلوها والسفير قتلوه.. ألم تعد لنا هيبة في هذا العالم؟ هل أصبحنا «هفية» ومستضعفين إلى هذا الحد؟ ألسنا بشرًا مثل بقية البشر؟

ارتدى ملابسه وحمل حقيبته ونزل يودع ممدوح موظف الاستعلامات ويتسلم منه الأمانات التي أودعها لديه ثم ترك له كارت التعارف قائلًا:

- عندما ترجع إلى القاهرة اتصل بي.

ثم قبله وخرج فلحق به ممدوح، أوقف له تاكسي وأصر على الذهاب معه إلى المطار، لأول مرة في حياته يشعر أحمد بهذا القدر من اليأس والإحباط، أحس بأنه تقدم في العمر لأكثر من ألف سنة وأنه زهد الحياة..

اتصلت به زوجته فهالها ما حدث وأدركت أن صوته مذبوح بالحزن وما زال يقطر ألمًا، قبل الموعد ذهبت لاستقباله في المطار، وبمجرد أن وقع بصرها عليه ارتجف قلبها وحدثت نفسها:

- أهذا هو أحمد؟ لقد شاخ قبل الأوان.

اتجه إليها ضعيفًا مهزومًا وارتمى عليها يقبلها ويبكي كطفل عادت إليه أمه، ربتت عليه بحنو وقالت له:

- الدوام والبقاء لله، ليس لنا من هذا الأمر شيء.

- طفلاها بحاجة إليها.

- سيتولاهما الله برعايته ونحن لن نتركهما.

- ماذا أقول لهما؟ هل أقول إنني شاهدت الأمريكان يفجرون البيت ويمزقون جثة أمكم إلى أشلاء؟

- أحمد، أرجوك، اهدأ ولا تقل شيئًا الآن.

ركب السيارة بجوارها وقادتها وهي تلتزم الصمت حتى لا تفجر بركان حزنه وكانت تردد في سرها بعض آيات القرآن الكريم وتدعو الله أن يلهمها الصواب لتخفف عنه تلك المعاناة والكرب الذي أصابه.

في البيت، حاولت أن تفتح شهيته للطعام ولكنه اكتفى بطبق صغير من الحساء ولم يكمله ثم قام ليستحم وارتدى ملابس النوم فتركته لعل النوم يخفف عنه، أغلقت الباب وجلست في غرفة المعيشة، فتحت جهاز التليفزيون وجلست تتابع نشرة الأخبار بصوت خفيض، رن هاتفه، نظرت في الشاشة فوجدته رقمًا خارجيًا، ردت فأتاها صوت وائل:

- أستاذ أحمد.

- أنا زوجته.

- هل وصل أحمد بك بسلامة الله؟

- الحمد لله، هو نائم الآن، من حضرتك؟

- أنا وائل توفيق من السفارة المصرية في بغداد.

- أهلًا وسهلًا.

- أرجوك يا سيدتي أن تعرضي الأستاذ أحمد على طبيب نفساني في أسرع وقت.

- ليتك توضح لي ما حدث له في بغداد.

- كنت معه ونجونا من الموت بأعجوبة، أحمد لم يمر بتجربة صعبة كهذه من قبل، وسوف يعاني من مرض يسمى رهاب الحرب.

- فهمت، وسأعرضه على طبيب في أقرب فرصة.

- بلغيه تحياتي وتقديري لشخصه الكريم.

- أشكرك.

وضعت الهاتف جانبًا وهي تردد في أسىً:

- رهاب الحرب؟! إنا لله وإنا إليه راجعون.

مرت ثلاثة أيام ولم يطرأ أي تحسن عليه، فهو لا يصحو من النوم إلا للحظات لكي يشرب أو يأكل بلا شهية أو يدخل الحمام ثم ينام ويهذي بكلمات غير مفهومة خلال نومه وتجنبت زوجته الحديث معه أو سؤاله عما حدث حتى لا ينفجر بالبكاء، توجهت إلى طبيب نفساني مشهور وسألته النصيحة فكتب لها اسم أقراص مهدئة ونجحت في إقناع أحمد بتناول قرص منها في الصباح وآخر في المساء، بعد أسبوع ظهر عليه التحسن وطلب منها أن تذهب معه إلى طفلي بيلسان والجد والجدة، فقالت:

- أحمد يا حبيبي، فاقد الشيء لا يعطيه، كيف وأنت ما زلت متأثرًا بما حدث ستقدر على مواساة الآخرين وإقناعهم بأن هذا قدر الله عليهم ويجب أن يقبلوه.. أرى أن تأتي معي إلى الطبيب أولًا لتستكمل علاجك وبعد ذلك سأذهب معك إلى الطفلين.

في نفس الوقت قامت هي بالتنسيق مع الجد والجدة لكي يتم إخفاء الخبر تمامًا عن الطفلين وألا يتصل السيد عبد العظيم بزوجها لمعرفة التفاصيل إلا بعد علاجه من الصدمة أولًا.

سارت الأمور على هذا المنوال، وبعد شهر قام أحمد وزوجته بزيارة الطفلين وأبلغهما بما اتفق عليه مع الجد والجدة من أن أمهما تعالج في أوروبا من مرض أصابها وعندما تتماثل للشفاء ستعود، حرص أحمد على التقرب

أكثر من الطفلين والخروج معهما في رحلات ترفيهية تعيد إليهما التوازن النفسي قدر الإمكان وترسخت لديه هو وزوجته قناعة بأن الله وإن كان قد حرمهما من نعمة الإنجاب فإنه يختبرهما ويمنحهما فرصة كفالة هذين الطفلين يتيمي الأب والأم.

■■■

في تلك اللحظة وهم مستغرقون في حديث الذكريات أقبلت عليهم المربية فرحة مهللة:

- افتحوا التليفزيون، أمجد في التليفزيون الآن وسارعت بتناول الريموت وأضاءت الشاشة ليظهر أمجد وقد كبر وأصبح شابًّا قويًّا ناضجًا يتحدث بجرأة وثقة وثورية:

- أقول لمن قفزوا للسلطة ونسوا دم الشهداء وحق القصاص وتنكروا لأهداف الثورة: «عيش، حرية، عدالة اجتماعية، كرامة إنسانية»، لن تفلتوا من العقاب، فالثورة الحقيقية قادمة والثوار الحقيقيون وعوا الدرس ولن يكتفوا هذه المرة برأس النظام، الثورة قادمة.

- حبيبي يا بني.

هتفت بيلسان وأجهشت بالبكاء فعاتبها أحمد:

- لماذا البكاء؟ لا، لا تبكي، فأنت أم هذا البطل الثوري المصري الأصيل.

- إنها دموع الفرح، لا أصدق أنني عدت لأولادي وأسرتي وأصدقائي مرة أخرى.

- يـا ه.. لقد نبهتني لشيء مهم جـدًّا، يجب أن نتصل بأمجد وروان وأيضًا الجد والجدة ونخبرهم بعودتك.

- هل سلموا بأنني قد مِتُّ وانتهى أمري؟

- اعذرينـا.. فـما رآه أحمد حينـما فجر الأمريكان بيـت خالك في الفلوجة جعلنـا نعتقـد أنـك من رابـع المسـتحيلات أن تخرجـي سـالمة أو تكتب لك النجاة.

قالتها الدكتورة سـعاد بينما انشـغل أحمد في الاتصـال بأمجد وروان ليمهد لهـما كي يسـتوعبا هذه المفاجأة المذهلة، وردت بيلسـان على الدكتورة سـعاد قائلة:

- يبدو أنني مثل القطط بسبع أرواح.

- أنـت سـيدة طيبـة ونقية جدًّا يا بيلسـان ومـا حدث لك ابتـلاء من الله عز وجـل وآية من آيـات قدرته ومن يـرد الله أن يجمع شـملهم فلن يفرقهم عتاة الأشرار من بني البشر أبدًا.

- الحمد لله، ألف حمد وشكر لك يا رب.

بعد لحظات، دخلت روان تجري إلى أمها غير مصدقة، صرخت من شدة الفرحـة وخلفها الجد والجدة وقد نسـيا آلامهما وهرولا نحو بيلسـان بفرحة غامرة، ثـم التفت السيد عبد العظيم إلى أحمد وقال:

- هذا الرجل النبيل سـاعدني في تربية ورعاية أمجد وروان وخففـ عنا ألم فراقك.

- فعـلًا هو رجل نبيل وفارس تعجز الكلمات عن وصف مكارم أخلاقه ويكفي ما فعله من أجلي في بغداد، لقد عرض حياته للخطر من أجلي وسأبقى أسيرة نبله وشهامته ما حييت.

- أرجوكم، أنا لم أفعل غير الواجب، أمجد وروان هما ابناي أنا والدكتورة سعاد.

- فعلًا هذا شعورنا الحقيقي نحو أمجد وروان.

- بـارك الله فيـك أنـت والأسـتاذ أحمـد وأرجـو أن يجزيكـما الله عنا خير الجزاء.

- بهذه المناسـبة السـعيدة سـنذهب جميعًا للاحتفال بعودتك سالمة، فأين تحبون أن نسهر الليلة؟

- لا، اسـمحوا لي أن أحتفـل بكـما هنا في بيتي ولكـن قبل كل شيء هناك عمل مهم أريد أن أنجزه حالًا.

- ما هو؟

- سأذهب إلى مشيخة الأزهر وأعلن إسلامي.

- سنأتي معك.

وفي المشيخة سألها الإمام الأكبر:

- لماذا اخترت الإسلام؟

- لأنه الدين المكمل لكل الديانات التي نزلت قبله ولأنه سيجعلني أُحشر يوم القيامة مع المرحوم زوجي ومع ابني أمجد وابنتي روان وهـم جميعًا يدينون بالإسلام إضافة إلى محبتي للسيرة العطرة للرسول الكريم محمد ﷺ.

- بارك الله فيك وهدانا وإياك لما فيه الخير.

خرجت من المشيخة لتجد الجميع ينتظرونها فرحين فالتفوا حولها: أحمد وزوجته سعاد والجد والجدة وابنتها روان، كانوا سعداء بعودتها وبإعلان إسلامها، فأخذوا يوزعون الحلوى على المارة وأتى من بعيد ابنها أمجد برفقة كوكبة من زملائه وأصدقائه وبمجرد أن رأته بيلسان صرخت وكادت يغمى عليها من شدة الفرحة، وأخذته في حضنها ثم وقفت تتأمله غير مصدقة أن هذا الشاب فارع الطول مفتول العضلات هو ابنها، وضعت يديها على كتفيه وسألته:

- أحقًّا ما يقولونه عنك يا ولدي؟

- ماذا يقولون؟

- أنك واحد من أبطال ثورة 25 يناير.

- الشعب هو البطل، أمي أنا سعيد، سعيد جدًّا بعودتك، أين كنت طوال هذه السنوات؟

- ياه..! غمة وانزاحت يا أمجد يا حبيبي.

- المهم أن الله لطف بنا وأعادك إلينا، الله، كأنني أحلم.

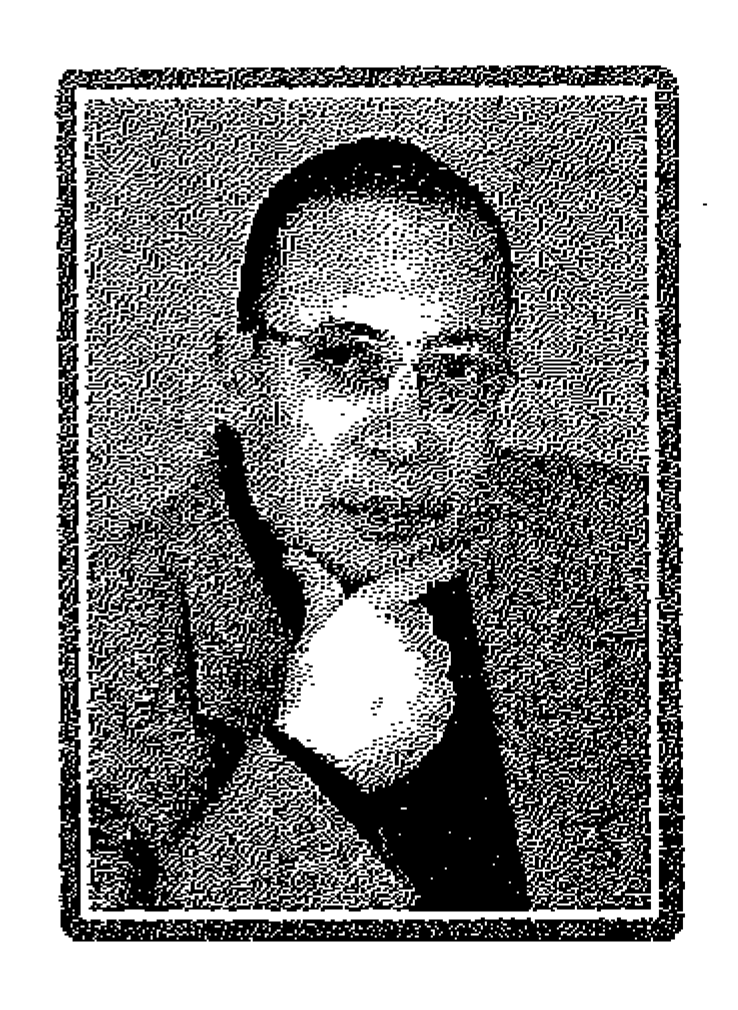
- الحمد لله، قدر الله وما شاء فعل.

قالتها بيلسان بكل الرضا والاقتناع ومشت بينهم وهم يحيطون بها كعروس في ليلة زفافها.

(تمت)

القاهرة في أول مارس 2013

للتواصل مع المؤلف
Email: abdelmaksoudradio@Gmail.com



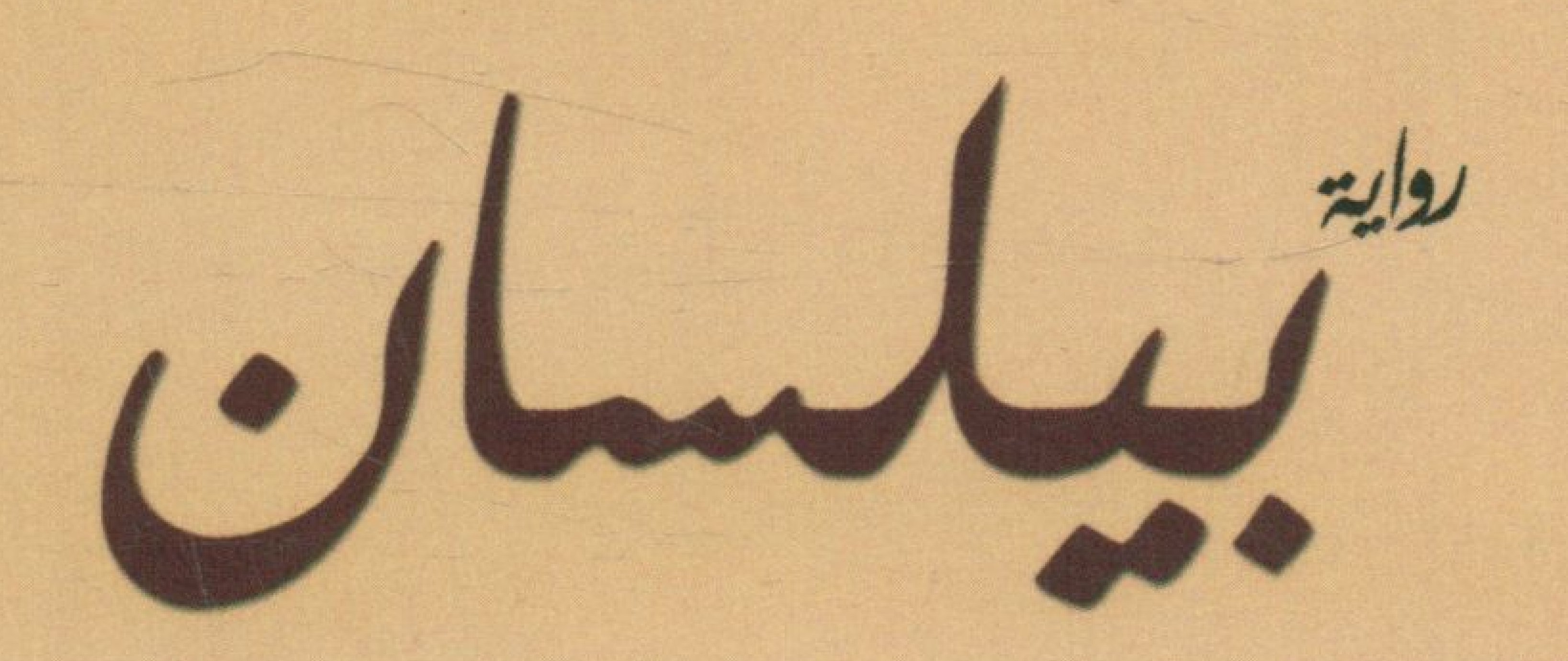
السيرة الذاتية
للأستاذ:
عبد المقصود محمد

- الاسم: عبد المقصود محمد عبد المقصود.
- اسم الشهرة: عبد المقصود محمد.
- من مواليد محافظة الشرقية بجمهورية مصر العربية في عام 1955م.
- تخرج في كلية الإعلام- جامعة القاهرة سنة 1977م.
- قام بتدريس فن السيناريو وتاريخ السينما في معهد الفنون الجميلة ببغداد من (1982 حتى 1987م).
- يعمل حاليًا مديرًا عامًا للدراما والبرامج الخاصة بإذاعة الشباب والرياضة.
- عضو اتحاد كتاب مصر.. روائي وكاتب مسرحي وكاتب أطفال وعضو لجنة الدراما بالإذاعة.
- كتب عشرات المسلسلات للإذاعة والتليفزيون وفاز بعدة جوائز.
- كتب أخرى للمؤلف:

1. «إذا جاء الشفق» (سلسلة روايات مختارة) هيئة الكتاب سنة 1977م.
2. «الطيور.. لن تعود» (سلسلة روايات الهلال) دار الهلال سنة 1985م ونشرتها هيئة الكتاب في (سلسلة الإبداع العربي) سنة 1986م.
3. لا سما ولا أرض (رواية) – دار فكرة سنة 2009م.
4. أولاد حياك الله (رواية) – دار وعد سنة 2010م.

5. شيرويت ع الإنترنت (مسرحية للكبار) سلسلة نصوص مسرحية - هيئة قصور الثقافة سنة 2003م.
6. عركة ساندي بشندي (مسرحية للكبار) – هيئة قصور الثقافة سنة 2012م.
7. عثمان الحادي عشر (مجموعة قصصية) – دار فكرة بالقاهرة سنة 2008م.
8. الأقصى ينهار (كتاب يفضح ممارسات العدو الصهيوني ومخطط هدم المسجد الأقصى) دار سطور بالقاهرة سنة 2011م.
9. النيل العظيم (تبسيط علوم للأطفال) – دار نهضة مصر 2013م.
10. رسالة من الكوكب الأزرق (جائزة سوزان مبارك) – هيئة الكتاب سنة 1989م.
11. الفانوس العجيب - رواية للفتيان - (جائزة سوزان مبارك) – هيئة الكتاب سنة 1996م.
12. أسرار القرن العشرين (كتاب الهلال للأولاد والبنات) – دار الهلال سنة 1999م، ونشرته في طبعة ثانية بعنوان (عظماء غيروا العالم) سنة 2007م.
13. العالم أصبح قرية (تبسيط العلوم) جائزة سوزان مبارك – هيئة الكتاب سنة 1992م.
14. حكاية السينما (تبسيط العلوم) – دار ثقافة الأطفال بالعراق سنة 1986م.
15. أميرة ضوء القمر (قصص للأطفال – مترجمة) – دار ثقافة الأطفال بالعراق سنة 1986م، ونشرتها دار الهلال في سلسلة (كتب الهلال للأولاد والبنات) سنة 1991م.
16. الصياد الصغير (رواية مترجمة للفتيان) – دار ثقافة الأطفال بالعراق سنة 1986م.
17. المدينة من ذهب ورصاص (رواية مترجمة للفتيان) – دار ثقافة الأطفال بالعراق سنة 1987م.
18. السفينة باز 12 (خيال علمي) – دار ثقافة الأطفال بالعراق سنة 1988م.
19. شاطئ الحلم الجميل (مسرحية للأطفال) تحت الطبع.
20. الدنيا لما تصحا (مسرحية للأطفال) تحت الطبع.
21. مغامرة ميدو (مسرحية للأطفال) تحت الطبع وعرضت على مسرح مصطفى كامل بالإسكندرية في صيف 2002م، ثم انتقلت إلى مسارح الأندية والمكتبات العامة وقصور الثقافة.
22. سامر والطبق الطائر (مسرحية للأطفال) تحت الطبع وأخرجها الدكتور/ محمد أبو الخير لمسرح التليفزيون سنة 2000م، وفازت بجائزة مهرجان الإذاعة والتليفزيون السادس.


دار نهضة مصر
للنشر



.. وأخذتها الذكريات إلى أول لقاء جمعها بذلك المهندس المصري البارع، الذي تعاقدت معه المؤسسة فأتى إلى بغداد في منتصف التسعينيات، ورغم صعوبة الأوضاع المعيشية تحت الحصار إلا أن راتبه الكبير جعله يعيش في بذخ فأصبح محط الأنظار، وجمعهما العمل فكانت مساعدة له، بادلته نظرات الإعجاب ثم غازلها بأروع الكلمات وهو يظنها مسيحية، ورغم ذلك انتهز أول فرصة يخلو بها وقال بعفوية:

بيلسان، أظنك تتفقين معي في أن الدين لله؟

بالتأكيد.

ألديك مانع في أن أتقدم لخطبتك؟

أهلي سيرفضون.

لماذا؟ أعرف أن المسلم يمكنه أن يتزوج مسيحية هنا في العراق دون مشاكل.

لكني لست مسيحية.

ولست مسلمة فهل أنت...؟





